كتاب
مشاهير الإسلام
في
الحرب والسياسة

تأليف

رفيق بك العظم

الجزء الثاني من المجلد الاول

(في سيره الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب)

« ومن اشتهر في دوله »

(طبع بطبعه وسوسيت شرق بمصر سنه ١٣١٠ هـ)

(صححها اسماعيل حافظ)

عمر بن الخطاب

باب

حاله في الجاهلية

« نسبه وأسرته »

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنتمة بنت هشام بن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لان هاشما وهشاما أخوان لمغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهشام بن المغيرة أبو جهل وأخيه الحارث وأما هاشم فانه والد حنتمة وعم أبي جهل والخطاب هكذا صححه في أسد الغابة

مولده وصناعته

سيأتي في صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذين انتهى بهم شرف الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهي اليه السفارة وسيأتي ذكر خبر صحابة الذين سترد سيرهم في هذا الكتاب وهم عمر بن الخطاب وقد ذكر وا هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ورد في الحديث ذكر سعيه في صلح المسلمين كما سيمر عليك مفصلا

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر اسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشدة عزيز الجانب مع انه لم يكن دا مال وعي بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً الى الشام وقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه ان عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأسر في أحدها واخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسره في الجاهلية لطريق من دمشق واستعمله في بعض عمله فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتحرر يرعى غنم أبيه فقد روى بن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بصحيان (اسم مكان) فقال كنت أرعى للخطاب هذا المكان فكان فظاً غليظاً فكنت أرعى أحياناً واحتطب أحياناً فأصبحت اضرب الناس لبس فوق أحد الا رب العالمين ثم قال

لا شيء مما ترى الا ستاتيه ... يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته وستترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة ارتفع به علو الهمة وصفاء العزيمة ولرأي والاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المخرصين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأعيانهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورين بالغنى والثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واصرابهم من صناديد قريش وأشرافهم الا أن معظمهم هاجروا الى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقلتهم في حاجة الى الاستكثار من ذوي العصبية أو الحرأة والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والدفاع عن بيضتهم وكان ممن عرف من قريش بسعود الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع خيرا للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعني أبا جهل

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين اليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لست سنين من النبوة وقبل اسلامه بسنة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد أربعين رجلا واحد وعشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

وأما سبب اسلامه فقد جاء فيه روايات كثيرة ومنها ما أخرجه الحافظ

عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم انه قال . قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤ اسلامي قلنا نعم . قال كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم هينا أنا يوما في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب انت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قال قلت وماذاك . قال أختك قد صأت . قال فرجعت مصبأ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه وقد كان ضم الى روح أخي رجلين قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوسا يقرأون القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واخفوا او تركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم قال فقامت المرأة فصحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد علمي انك صوت قال فارفع سيفا في يدي فاصر بها به قال فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فطرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطنيه فقالت لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم دعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الى نفسي فاذا فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل دعرت ثم رجع الى نفسي حتى انتهيت (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى انتهيت الى قوله (ان كنتم مؤمنين) قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عزّ وجلّ ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فانّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين امّا عمرو بن هشام وأمّا عمر بن الخطاب) وإنّا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا مني الصدق وقلت لهم اخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب قال . وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا اسلامي قال فما اجترأ أحد منهم ان يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فانه ان يرد الله به خيراً يهده قال فقتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه وأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصي فجذبني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم أهده قال فلت أشهد أن لا إله الاّ الله وانك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة قال وقد كان استحى [1] قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلاً أسلم يضرب الاّ رأيته [2] قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب الاّ أن يصيبني ما يصيب المسلمين قال فذهبت الى خالي (يعني أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج اليّ فقلت له أشعرت انى قد صبوت . قال فعلت قلت نعم . قال لا تفعل . فقلت بلى قد فعلت . قال لا تفعل فأحاف الباب دوني وتركني قال فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب ان يعلم

(١) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين

(٢) وفي رواية فلم أستأن ارى رجلا يضرب ويضرب الا رأسه ولا يصيبني من ذلك شيء

اسلامك قال: قلت ثم. قال: فاذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت رجلا لم يكن يكتم السر طلع اليه وقل له انبأتك وبايعته اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه ويصيح ورائه. قال: فاجتمع الناس في الحجر فجئت الرجل فدلوت منه فاصغيت اليه فبايعني وبايعته فقلت أعلمت اني قد صبوت: فقال: ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ: قال. فما زال الناس يضربوني وأضربهم فقال خالي ما هذا: قال: فقام على الحجر فأشار بكمه فقال ألا اني قد أجرت ابن أختي. فانكشف الناس عني وكنت لا أشاء ان ارى احدا من المسلمين يضرب الا رأيته[1] والا أضرب: قال: فقلت ما هذا بشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين. قال. فأمهلت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ما أسمع: قال: قلت حوارك عليك ردّ. فقال لا تفعل يا ابن اخي. قال. قلت بل هو ذاك: فقال: ماشئت. قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى اعز الله الاسلام اه

وروي انّ عمر لما اسلم قال. يارسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايمان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال لما أسلم عمر قال المشركون قد

«١» يريد الا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى ان الناس وادعوا رعته ولم يحتج هو الى الضرب نفسه

انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

وأنت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسمو منزلته في قبيله وما كان لاسلامه من دخول الرهبة على نفوسهم اذ أقروا بظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت وتؤيدها شاهد العيان أيضاً فان المسلمين بعد اذ كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد اسلام عمر دينهم وأخذوا يبثون بين الناس دعوتهم لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم ولا بما نالهم من الصرر والاذى اليهم فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصلي في البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي) أخرجه في أسد الغابة وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)

ولا حرم فعمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الرجل الفذ الجليل الذي قوى الله به الاسلام في مبدئه وأيده في هجرته وهو بسبيل الشر لدعوته والصح لاهله فكان رضي الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المضروب في القوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الاعداء وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الأمم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي من الله بها على المسلمين وفتح بها على الدين

صحبته

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته ودل في نصرته ومحبته وفي متابعته له على عن المسلمين وسافح عن سيد المرسلين وتطهر من

الشدة على أعدائه والمظاهرة لأوليائه ما أرعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه واصطهادهم للمسلمين قبل الهجرة الى المدينة حتى اذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين الا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش . فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ ابن عساكر عن علي رضي الله عنه قال ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر الا مختفياً الا عمر بن الخطاب فانه لما هاجر بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس من أراد ان تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي فما تبعه أحد الا نفر من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه

وأخرجا عن البراء بن عازب قال أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الاعمى أخو بني فهر ثم قدم علينا عمر الخطاب في عشرين راكباً فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على أثري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قواماً على الحق مناحاً عن رسول الله مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه معصاماً من أمصه لا يهاب حركات المنافقين ويستطلع ضمائر القلوب حتى لا يمرن في أحدهم سوء الا لامه في دخوله وخروجه وألزمه حد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحجام عنه والخضوع بين يديه . روى ابن عمر بن وهب لمحمي

عامة صفوان بن أمية القرشي يعرفه بدين على أن يأتي المدينة فيقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله فخرج إليه عمر بن الخطاب وتفرس فيه الشر فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله واحرسوه هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه يا عمر ثم سأله عما جاء له فقال جئت لهذا الأسير (يعني أباه وهب لأنه كان أسيراً عند المسلمين أسروه في وقعة بدر) قال اصدقني قال ما جئت إلا لذلك قال بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير وأسلم لساعته

وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل بن عمرو فأسر في وقعة بدر مالك بن الدخشم الأنصاري فلما أتى به رسول الله قام إليه عمر وقال دعني أنزع ثنيته يا رسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه يا عمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه (١)

ورأى مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له فعظم ذلك عليه وأخذ بحناق اليهودي وقال دعني أقتله يا رسول الله فقال. دعه يا عمر ان لصاحب الحق مقالا

وله من هذا القبيل أخبار كثيرة أيام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له وإخلاصه في الذب عنه والشدة على من ناواه

---

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الردة وذلك أن قريشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه فقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال مما هو مسطور في التواريخ فامسع أهل مكة عن الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الأمور فكان أبو بكر وعمر فطاحل عصرهما بالصدق ومحبتهما وعظيم إخلاصهما ولذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذي عن ابن عمر وفي رواية أبي داود عن أبي ذر قال (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من من الأمم محدثون (ملهمون) فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر (متفق عليه كما في المشكاة) لهذا كان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته عشرين وتيفاً ومنها آية تحريم الخمر فإنه لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فإنه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يحتجبن فقالت له زينب وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا فانزل الله تعالى واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال اللهم حرم الدخول . فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضي الله عنه في صدق اللهجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سبباً في تحريم الخمر الذي هو آفة الانسانية وحرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والجثمانية في كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضي الله عنه ناموساً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه والحب له والمداومة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم بن عمر قال: لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل (أي ظهر دينك) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب: قم فأجبه: فقال الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار: فلما أجاب عمر أبا سفيان قال أبو سفيان هلم إلي يا عمر فقال رسول صلى الله عليه وسلم: انته فانظر ما يقول: فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً: قال: لا والله ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر (القول بن قمئة لهم قد قتلت محمداً)

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً الى ذات السلاسل في جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله في جيش اميره أسامه بن زيد مولى رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقي عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت في سيرته وبالجمله فان عمر رضي الله عنه خدم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً لنبيه عظيم الحب له حتى بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته أو أصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال. من قال أن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. والقصة مشهورة أوردنا المهم منها في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فكأن عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين وأذهلهم عن الكلام ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس بنبأه

باب

﴿ خلافته ﴾

تقدم معنا في الجزء الأول ان أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة يوم وفاة أبي بكر ولما تلي كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم يتكل عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعة أبي بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الاول واما رضى المسلمون بعهد أبي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتحاسدها العصبية وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرّس المسلمين في عمر الكفاءة على القيام بهذا الامر واقتداره على سدّ ذرائع الفتنة كما تفرّس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق لهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكمال ثقته رجاؤهم فكانت خلافته رحمة على الأمة كما مرّ في حديث بن مسعود

اخرج الحافظ بن عساكر عن أبي عبيدة قال قال عبد الله بن مسعود - أفرس الناس ثلاثة . الملك حين تفرّس في يوسف والقوم فيه زاهدون . والمرأة التي

تفرّست فى موسى فقالت (يا أبت استأجره انّ خير من استأجرت القوىّ المتين) وأبو بكر حين تفرس فى عمر فاستخلفه

نعم قد استاء بعضهم من استخلاف أبى بكر لعمر الا ان استياءهم لم يكن لفقد الكفائة ممن أسندت اليه الخلافة وانما كان لصرفها عنهم أو خوفا من شدة عمر عليهم كما بسطنا هذا فى سيرة أبى بكر ومع هذا فان أبا بكر رضى الله عنه لم يقض الا بعد ان جعل الساحط راضيا فقد أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية وابن عساكر فى تاريخه عن عاصم قال جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطبها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا واحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وان هذا الامر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا يحمله الا أقواكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم فى حال الشدة وأسلسكم فى حال اللين وأعلمكم برأى ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحيي من التعلم ولا يتحيّر عند البديهة قويّ على الأمور لا يحور لشئ منها حده بعد وان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده [1] من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل [2] الساحط أمارته الراضي بها على الدخول معهم توصلا

ومن هذا يعلم ان أبا بكر انما اختار للخلافة عمر رضى الله تعالى عنهما علما بحقيقته وسدادا لذرائع المفسدة وطلبا لخير المسلمين ومصالحهم لا لمحاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد أخرج الحافظ عماد الدين الحزرى

---

(١) كذا في جميع نسخ المعدود بين يدى الخاطة (٢) هكذا في السيرة العمرية وفى تاريخ ابن عساكر وحمل به وبه كذا معلق (توصلا)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي "انه دخل على علي بن أبي طالب في خلافته فقال: يا أمير المؤمنين اني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما أهل له من الاسلام. فقام (أي علي) فخطب الناس خطبة طويلة مما حاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء معناه في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفائة عمر دعاهم الى الرضا ببيعته والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الاسلامية ان كانا مثالاً لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبحان الله سقاً بعيداً وأتعباً والله من بعدهما اتعاباً شديداً فذكرهما حزن الأمة وطعن على الائمة»

ولقد صدق رضي الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد ديك الخليفتين الا مطالبين بمثل عدلهما محاجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الأولين وأول ما خرجوا كان خروجهم على علي رضي الله تعالى عنه هذا على مكانته من دين وتقوى وعلم حتى أن خوارج ليستطيعون أن يحتجوا عليه في سيرته لما سأله التحكيم الذي ابتدعوه في حينه لا غير

وحسب عمر رضي الله تعالى عنه من خلافته أن يكون مثالاً في العدل وحجة

على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته نشراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على انه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل فى الاسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذى يفتخر به تاريخ الاسلام لشيدوا بأسمه الآثار العظيمة فى كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حى فى التاريخ وبعد فان أحط الشر عفو لا وأضعفهم بصيرة فريق العلاة من الشيعة الذين يطعنون فى ذلك الرجل العظيم الذى أصبح فى حسن السيرة مثلا فى العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأى عار على المسلمين باءزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينسب الاسلام جماعة يقدحون بعمل عمر بن الخطاب على تفرده بالشهرة وجلاله قدره وجلائل أعماله وآثاره وسبقه بالايمان وخدمته الاسلام فى صحبته وخلافته حتى كان عمدة جميع التاريخ الاسلامى وذكرى الفخر العامر الخالدة مع ان الاسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التى أسس بحلها ابن سبأ اليهودى واصراره من أعداء الاسلام ومريدى الشر بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الاسلام وهو يبرء الى الله من بحلهم الفاسدة التى لا تقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الاعمى والجهل يقعدان فى العقول والاوهام مالا تفعله السموم فى الاجسام

باب

أول أعماله فى الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضى الله عنه يوم سقيفة بنى ساعدة لما صعد المنبر فخطب الناس فقال « ما من العرب رجل أحب الى أن تبع فائده فلسطر فائده حيث يعود

وأما أبا قورب الكعبة لاحمائهم على الطريق

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور. إنتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس: وعزل خالد بن الوليد وتوسيد الامارة العامة في الشام الى أبي عبيدة عامر بن الجراح. وبعث يعلى بن أمية لأجلاء أهل نجران فأما خبر أبي عبيد فسيأتي معنا في باب الكلام على فتوحات عمر (رض) وأما خبر خالد بن الوليد فقد مر معنا ذكره في سيرته وربما نعود الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام. وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها موعظة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا إكراه فيها وأن أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم وان يعطيهم جزءا من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وأن لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء الا ما رضيه في عهده وان يكون له الذمة والعهد أنى حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام مادام وافيا بعهده مؤديا لجزيته لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا نسوقه اليك في هذا الفصل خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم مالم يخونوا أو يغدروا وتحرير الخبر عنهم انه كان وفد وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقيل منهم الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتابا جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومر بهم فيه ولا يحشره ولا يعشروا وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وموالهم وعائبهم وشاهدهم وغيرهم

وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبدا حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقرهم على حالهم وكتب لهم كتابا على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يبقين في جزيرة العرب دينان: ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد بأصابتهم الربا

فانظر كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ان لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لان العرب أمة حديثة عهد بالاسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يتدينون بغير دينها فيفتنون من حاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعد من اصوله الصحيحة

هذا من وجه ومن وجه آخر فان النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من حاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ويؤذن بفقرهم على غير شعور منهم لا سيما وان الشريعة الاسلامية قد حرمته تحريما باتا ولا تؤمن من ان النجرانيين باستمرارهم على تعاطي الربا يحملون بعض من حاورهم من المسلمين على ارتكاب الاثم بالتعامل معهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تلجئ الى إكراه النجرانيين على الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لان شريعته لم تأذن باكراه أهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم الى الاسلام بالتي هي أحسن

فأبوا وأعطاهم كتاب العهد المذكور إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يحونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه في أمرهم الا ما وسع الرسول (ص) حتى اذا علم انهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون أن يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ويحيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لا أن يعاملهم معاملة القوي الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مر معناه وبمعناه قال فيه عن عمر انه أوصى يعلى بن أمية باهل نجران فقال

أتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقر المسلم وامسح أرض كل من تحلي منهم ثم حيرهم البلدان وأعلمهم أنا نحليهم بأمر الله ورسوله أن لا نترك بجزيرة العرب دينان فليحر حوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقرارا لهم بالحق على أنفسهم ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين حيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم من ريف

وكتب لهم كتابا هذه صورته كما أوردها البلاذري في فتوح البلدان

«أما بعد فمن وقع به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الارض

وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن »

على هذا الوجه أجلى عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود فتفرقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت

ولم تقف العناية بهم في اجلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ولم يرفعوا لاحد منهم مظلمة إلا أنصفهم ورفع أذى عماله عنهم وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك انهم شكوا مرة الى عثمان رضى الله عنه لما استحلف ضيق أرضهم ومزاحمة الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف حزيتهم فكتب الى الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه بهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله وعفى لهم من أرضهم . وستأتي صورة الكتاب في خلافة عثمان رضى الله عنه

وروى البلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية شكوا اليه تفرقهم وموت من مات منهم واسلام من أسلم منهم وأحصروه كتاب عثمان بن عفان عما حطهم من الحلل وقالوا انما ارددنا عصاً أو صعفاً فوضع عنهم مائتي حلة تمة أربعمائة حلة فلما ولي الحجاج العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته فرد حزيتهم الى ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر بأن يحصوا فبلغوا العشرة من عدتهم فألزمهم مائتي حلة حزية عن رؤوسهم ونقض لما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الاموي ردهم الى ما كانوا عليه عصبية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين واستخلف ابو العباس السفاح وعهد اليه أمرهم وما كان من عمر بن عبد العزيز

ويوسف بن عمر فردهم الى مائتي حلة ولما استخلف هرون الرشيد شكوا اليه تمنت العمال اياهم فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتهم أحد من العمال

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب وقد رأيت معاصر مبلغ عناية عمر (رض) بهم لما لم يبد من اجلائهم للاسباب التي مر ذكرها وقد كان من السهل اكراههم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي منع من اكراه غير مشركي العرب على الاسلام كما منع من نقض العهد وحقر الذمة إلا بسبب مشروع لهذا ما ان النجرانيون عهدهم تعاملهم بالربا وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتعاملوا به في الجزيرة ساع لامير المؤمنين اجلاؤهم الى غيرها بعد ان عوضهم عن المال والعقار مثلها وزال الخلفاء بعده مبالغة بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ووفاء بعهد الله ورسوله يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين وتدفع عنهم أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

يتضح معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم كره النجرانيين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة عهدهم بالاسلام وذلك لان عدم الاكراه من أصول الشريعة الاسلامية والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكراه الا جهاد مشركي العرب يومئذ فقد شرع لارغامهم على الاسلام لاسباب حكيمة

لا تخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الامة العظيمة من شرور الوثنية واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وافريقيا وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والاشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وفلتهم وقوة الخلافة الاسلامية وسلطتها وان ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة بل عن محض تمسك بالعهد وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على قاعدة حماية الذمي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم لما فضت الضرورة باجلائهم عن أرضهم الى غيرها من بلاد المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه مستطرداً في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما وما فعله من هذا القبيل مع أهل عرسوس من ثغور الروم وكيف انه لما أمر باجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الامانة والصدق أمر بأن يعوضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين وما زال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام المعلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ولم يؤثر عن أحدهم انه طرد قوماً من أرضهم أو نزعها منهم بغير حق ولا عوض ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض العمال الذين

غلبت شهواتهم على الفضيلة فحادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب أفراد المسلمين من جورهؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم وليس في هذا ما يقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل

هذا شأن الاسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر الا ما تدعو اليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين لا ما تدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة وقد علم هذا المسلمون وحكامهم وان لاهل الذمة مالهم وعليهم ما عليهم من العوائق الرأفة بأهل حوارهم والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الاخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينازعوهم حقا من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءا من الدولة وعضوا من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته في العمل ومشاطرته أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الامويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء علتهم عليهم بل بلغ من تعظيم المسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضوا من جسم هيئتهم الاجتماعية لا يجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم حصد المسلمون شوكة التتار في الشام ودان ملوكهم بالاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير التتار قطلوشاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له باهل الذمة فقال له شيخ الاسلام لابد من افكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا لا من

أهل الله ولا من أهل الذمة فاطلقهم له (١)

وكيف لا يقوم عليه السلام بواجبهم وقد أوصى عليهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ونحن ننقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله

«واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقتدي به وان ملك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال «استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً» ورحمهم ان أم اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة» احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من حاصمه خصمه. والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآست من نفسي صمعاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي وأسأل الله أن يقصي اليه غير مفرط. والله اني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان أسأل عنه يوم القيامة»

---

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة في نسخة خطية من الرسالة القبرصية التي قدمها شيخ الاسلام ابن تيميه لسرجوان ملك قبرص لافكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ علي أفندي يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف ان يعمل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرمى غرض المؤرخ الصحيح ولو عمدوا لنقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة باصول المدنية الاسلامية وعصورها لنفعوا الاسلام والمسلمين

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي بعماله أهل الكتاب تري الرهبة من الله بادية في كلامه وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنما هو واقف بين يدي الله يسأل عن حقوق خلقه ويحاسب عن عمله في رعيته - إن في هذه الآيات من العدل وغايات في إنصاف الرعية غير المسلمة لا يدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل أمة من أمم الارض الآن

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وصايا عمر التي أوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والانصار وأهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتابا قال فيه : وأوصيه باهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم الخ ما جاء في الكتاب كما ستراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في أهل الذمة ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في الممالك الاسلامية مازالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مدى ثلاثة عشر قرناً فلم تنزع منهم أرض ولم يطردوا ويشردوا عن أوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو أصيبوا بما يصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان الاسبانيول مالئوا ان دوخوا البلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أبقى لهم في بضع سنين باقية ومحا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في تلك البلاد التي كانت حسنة الارض في عصرهم

واذا انتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا أحط في الاخلاق والمدنية من تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأحصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم

نقول ولا نكران للحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الاوربية في دور تمدن حديث نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأطلت فروعه ممالك المغرب وانما علم حملة علوم الدين وتعصبهم الديني هو الذي جعل هذا البون البعيد بين المغربيين وبان في السياسة بين الفاتحين وأين من يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب كجزء لا ينفصل عن مجتمع المسلمين له مالهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق كما في وصايا الخلفاء الى رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يحفز للوثوب على الشعوب وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم مثير ونار الحروب الصليبية من القسس ومدبر ومكائد جمعية التفتيش الديني (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الاسلام والمسلمين

أليس العجب ان يقرر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويعاهدهم على هذه الحماية علماء المسلمين كل ما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الأمم العصرية وحملة الانجيل في الممالك العربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق

وينصف المسلمين فى دينهم وبما لهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا لمنتهى الصعف فى الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص فى لباس الاوهام والى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا وأتى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل

رب معترض يقول اننا بالغنا فى تعنت الأمم المسيحية والنزعة من وصمة التعصب الذميم الذى ترمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس لاتتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكومتهم من اعتداء رعيتها من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بحسنه أهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة من السماء الا ان دينهم الذى أمر بالعدل بين الرعية والوفاء لعهود أهل الذمة وجاء للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدي على حقوق الجوار هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الاعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الامم معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين فأطلقوا لهم حرية الدين واقامة الشعائر والعادات وأمنوهم على المال والارض وحرية المتاجرة وشاركوهم فى الاعمال وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين فى ذمة المسلمين وعهدهم لا يصارون فى عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد اذا نسوا ويستلينهم اذا قسوا وانما تاسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تاسوا كثيراً من شعائر دينهم وتسامحوا أصول شرعهم اذا نفح فى المسلمين شئ من روح التعصب على المسيحيين وجفوا اخوانهم فى الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم فى الدين فانما كان نافخ هذه الروح ومصدر نار الفرقة والبغضاء بين الفريقين حروب الصليبيين التى أسعرها فى المشرق خطباء الدين والسياسة فى الممالك المسيحية ومقالات من

تحول قوة لعلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وايغالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في الشرق تداخلا ممزوجا بالاغراض السياسية مبنيا على القسوة والجبروت في مناواة دول الاسلام مع مايضاف الى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين في مناوأتهم لمحاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى المظلم من جور الحكام الظالمين حتى أصبحت المملكة العثمانية مذ قرن تقريبا كميدان حرب تباع فيه أرواح المسلمين والمسيحيين بلا حريرة ولا ثم الا الجهل الذي نزج بهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم من يخدمون ومن ثم كان المسؤل عن بث روح الحماء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون أنفسهم

أجل قد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تاسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يبنى على عملهم حكم. إنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا أهل الكتاب فسلبوهم كثيرا من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت عن مدارك العدل مداركهم وكان المسلم والذمي في جورهم سواء وأي ويلقى المسلمون منهم من البلاء أكثر مما يلقى المسيحيون. على أن الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ونفثت فيهم سم السافر و الجماء لوجدوا الأنفسهم سبيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً في نوع الحكم والحكم في معاملة الذمي في الاسلام هو ما رأيت مما مر في هذا الفصل من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم باهل الذمة والعهد واذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم في معاملة المسلم عند الدول المتمدنة المسيحية في هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً إذ ان الاسلام لم يأت بقانون متباين لحكم الامم الغالبة والمغلوبة وانما أتى بقانون واحد الناس كلهم في شرعه سواء واما قوة الغلب التي أتيحت في العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة في معاملة المسلمين معاملة القوي القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ بتلك الدول أن جعلت وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على أساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك من هذا أن دولة فرانسا التي توسعت في هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ونزع السرنساويون في الجزائر منازع القوة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم حتى بات الحر منهم يرى في حاله من الصعلكة والفقر والجهالة ما يطير لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنساوية أنغص الدول على المسلمين في هذا العصر ويتلوها في المرتبة هولاندا في معاملتها الداخلة لمسلمي الجاوى ويتلوهما النمسا في معاملتها لمسلمي البوسنة والهرسك ويتلوهما الدولة الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة مسيحية نالها نصيب من حكم المسلمين وتعلقهم ومع أن دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين

وأسدهن سياسة في المستعمرات وأطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية الا اننا نرى بين الحكومة الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملتها الشرقيين بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً اذ بينا ري أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتهنون الشرقي امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر وينالون في حب الذات الى حد يكاد يبعّض للمسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا في الحرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول في فندق من فنادق تلك المدينة لانها كلها تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقي مهما كان مقامه أن يدخل مكاناً فيه رجل انكليزي بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حيثما كانوا أرحلا من الشرقيين ورأينا كثيراً من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التناهي في الحمروت والاعراق في حب الذات[1]

---

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الاحد عشرة ذي القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان سال في أفريقا الجنوبية تقول ان رجلا فيها مدعو ارسال لكم نسخة من جريدة (مكرى) المطبوعة في بتال في (بورتايريت) وهي ان المؤدن بيناكان واقفا على رأس مئذنة عالية يؤدن فلم يشعر الا وصاحب داري أسامه من يد أحد المتعدين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤدن على مسجد حراء مغرقة قصت بحمها في هوّيها (كذا) وقد قص على الحالي وهيهات ان يلقى عقاب الموت لانه لم يعهد ان انكليزاً يقتل في وطن بهذه الديار ولا في الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأتي العلم أن سوء يذكرها صحيحة هو الكذب

فأين ماتعامل به المسلمين الدول الاوربية فى هذا العصر الذى دالت به لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين فى ابان مجدها وأيام فتوحها رعيتها من المسيحيين وأين ماعامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل

لاجرم أن الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الدين كانوا يصورون المسلمين فى صورة وحش صاروا ان يصوروا المدن الاوربي وأهله فى أقبح صور الحيوانية وأخس لباس التوحش والهمجية بعد ابسطناه من المقابلة بين حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم التمدن فى المسلمين ومن العار على هذه المدنية أن تصل الى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهي تنحط الي دركات التسفل فى الاخلاق والنائي عن الرحمة والبعد عن فضيلة العدل فتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ولا ذنب لأولئك المسلمين الا كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الامم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الاخا والمساواة وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم سارع البقاء دولهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم تعبث شهوات أمرائهم وجهل عامتهم أصبحوا فى نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يحارون بغير الظلم والاستعباد ان هذا لشيء عجاب

يقول الاوربيون ان المسلمين أمة تفيح فيهم روح التعصب والجمود

والشخص لا يدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاحتراز الناقص عند الباحثين وفي الغرض أو التعصب الذميم عند السياسيين وطامة القائلين بهذا القول وإنما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي في أوربا في القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم أصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم في عالم والاسلام في عالم آخر لم يتحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً في الدين والاخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس اذ أن قوماً مضى عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر ما يتمتع به الوطني في وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الاقوام لأدب الجوار وأبعدهم عن تحكم اللعب وجبروت السيادة لدى يظهر من كل فاتح عظيم

آن للاوربيين أن يتزحزحوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ويعلموا ان الاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ومحاسنة من أحسن اليهم وان لا يخاشنوا الا من خاشنهم وأراد امتهانهم وان المسلمين عما فطروا عليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضىً بالقضاء وميلا للفضيلة وقد قضي جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دوله المشرق للعربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة الاظير امتلكوا قلوبهم واستأسروا نفوسهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دوله انكلترا من اخلاص المسلمين الدين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم والأمن الظل الفاصح والعار المشين على الدول المتمدنة المسيحية

وأخصها مجورية فرانسا الجارة على المسلمين أن تعامل محكوميها من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الاسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من تمتعهم بحرية تتمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لا سيما في المملكة العثمانية ومن العيب ان تحتط الدول الاوربية لنفسها خطة العسف وحب الاثرة والجور في حكمها في الشرق وترجو مع هذا تمكن سلطانها في هذا الجزء العظيم من الارض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أميركا مثلا لساغ للدول الاوربية أن تعاملهم بما شاءت من ضروب القسوة والاذلال حسبما يوحيه اليها شرع التمدن الحديث وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكر فمن المحال إذ ترضى لنفسها الاذلال وإن طال عليها المطال والله ولي الرشد وهو الموفق بين القلوب

باب

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الاسلامية فلّت جموع الروم على اليرموك وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي كانت قبل ذلك الى فتح دمشق وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة الى أوائل السنة الرابعة عشرة أو حداً اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل

الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواه تاريخ الفتح الاسلامي كسيف ابن عمر الأسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلاهم من مدوني التاريخ كابن جرير الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعدُ في سرد الوقائع المختلف في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في شيء مادام من الثابت حصول الوقائع وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً الا عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أو ردها الرواة متفرقة من طرق شتى فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو أن تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والعبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لا في تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

﴿ فتح دمشق ﴾

(وانحياز هرقل الى حمص)

لما انتصر المسلمون في وقعة اليرموك كان هرقل في أورشليم وقد حاءها لاجل الاحتفال بعيد تحليص الصليب المقدس الذي استرده من دوله الفرس قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دولته يتوقعون بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم ما لم تبلغه جيوش دوله الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين في اليرموك فنخب قلبه وأسقط في يده فطر فرأى أن مقامه في أورشليم (القدس) خطر عليه سيما اذا انساح المسلمون في أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سوريه ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لاعماله الحربية ومن ثم أحدث المقتله ويذكي العيون ويسرّح القواد الى مواقف الحرب وسلم أحاد تدارق (لعله تيودور) القيادة العامة

وتربص به في حمص وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وانه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر على أن هرقل كان ملكا حازما لبس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا طفره قبل حربه مع العرب بالفرس[1] لهذا فلا بد التجاء هرقل عن جيشه في حرب المسلمين من عذر

---

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالى سنة (٦١٤ م) فاشتهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١ م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى (ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ومعنى بأدنى الارض ادرعات وهي أدنى أرض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها في بصرى وفائقها وكان سبب نزول الآيات ان النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لان المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق أبيّ بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن و لرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلبت فارس وأتى أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة وقد كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التي بعدها أي قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة فكون انتصرت هذه الحرب نحو سبع سنين وعادت ظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والبضع ما بين الاربعة الى التسعة وقد جاء في تواريخ العربيين ما يؤيد ذلك وحصل ما ذكره عن هذه الحادث أدورد جبون الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابروبز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية (البيزنطية) في سنة ٦١٤ م ولا سبب لاحتلال ذكره هذا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ومن رأى الامبراطور هرقلونس هرقل ان حصر بخليج البسفور جيشه حتى يحول هو بين الفرس وقرطاجنة فسعد في يديه فجهز جيشه لاعتبر شجاعة مقاتليه وامؤن وخرج بهم في سنة ٦٢٢ م من القسطنطينية حتى اذا هو سار بجيوشه

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتألفهم من جور الحكام الرومانيين خامر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد لاسيما وان الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كافٍ لحماية البلاد وانما كان حماتها من العرب المتنصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الظن فلا يؤاخذ هرقل على انحياره الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكاً بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد

لم يكن المسلمون يومئذٍ على ما عهدوهم من البداوة جاهلين أحوال البلاد غير خبرين بقوة أهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من أمرهم ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حاله البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للتجارة لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدرب والاناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

ومن ثم بحر الاسكندرون في عباب البحر الابيض حتى انتهى الى الاسكندرون بعد معاناة نصب شديد في البحر وهناك رأى هرقل في جون الاسكندرون مرسى أمياً لسفنه لا تصل اليه كيد البحر ولا كيد عدو فأمر بان ترسو فيه السفن وان ترد الجنود الى حدود سورية وكيليكيا «اذنه» ورتب معسكره قرب إسُس في السهل الذي انتصر فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس «وهو سهل الاسكندرون» وأحد بدرب جنوده على وعورة حرب وعرتهم بالطعن والضرب ولما علم بذلك الفرس انكفأوا لقتاله من داخل الا انه حاصر عليهم مجتمعين بدربه الحربي ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم جملة جيشه ودربهم حتى خلاهم عن ممالكه ولما كانت سنة «٦٢٨ م» استتب اصلاح بين الدولتين وكان ولي ملك فارس كسرى اردشير بعد أن قتل أباه ابرويز فسلح هرقل صليب الصلبوت لمالكيين الى أصلها الذي وجد في الارض الكامل لابن الاثير مما يتعلق بمعنى ما ذكر جنود وشيء زيادة مفصل

مايصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الأسلام وتعميم دعوة القرآن. لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت همجية على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم في تدويخ البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها وسنفرد له فصلا خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالى وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك ببعض تصرف واختصار قال

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل لواقوصة وفرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسُرّحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا تصال بردة ولا تقطع لروم لي موادّه[1] وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد اتباع الفالة ولا يدري يحتمون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم احتمو ابحمل و ن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أيدمشق يبدأ أو بمحل من بلاد لاردن فكتب في ذلك لى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقرّ الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا من كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمر بمعونة الناس حتى يصير حرب لى المسلمين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة لى عمر بالذي يسعى ليه أنه كتب اليه أما بعد

---

(١) أي كي لا تقطع مواصلة حتى لا تصلح معونة لهم في حرب

فاحفظوا دمشق فانها مفتاح حصن الشام وبيت ملكه ثم اشغلوا عنكم أهل كل جند تكون بإزائهم في ثغورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وان آخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فينزل بدمشق من عسكرك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على كل فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأحلهما بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرّح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الاعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد بن عامر الخُرشي. وعامر بن حشمة. وعمرو بن كليب من يحصب. وعمارة بن الصَّعِق بن كعب وصيفي بن علبة بن شامل. وعمرو بن الحبيب بن عمرو. ولبدة (أو وليدة) بن عامر بن خَشْمَة وبشر بن عصمة. وعمارة بن مخش (أو مخشي) قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصفّر حتى نزلوا قريباً من حمل فلما رأت الروم ان الجنود تريدهم بقوا المياه حول حمل فاردغت الارض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك وحبس من ميامن المسلمين وكان أول محصور بالشام أهل حمل ثم أهل دمشق

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءا. وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً كانا بين دمشق وفلسطين والامير يومئذ يزيد بن أبي سفيان [1] فقدم خالد بن الوليد على مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض ابن غنم وعلى الرَّجْل شُرَحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفي رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها. فكان

(١) يعني انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية وهرقل (هرقل كليوس) بوسط بحمص خاصر وأهل دمشق نحو ممن سيرين ليلة حصارا شديدا بالرجف والترامي والمجانيق والروم مقتصرون بالمدينة يرجون الثبات وذوال الكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهم المدد وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فاشجتها الخيول الى مدى الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين فلما أيقن أهل دمشق أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وقد كانوا يظنون انها كالغارات قبل ذلك اذا هجم الرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وفي غضون ذلك ولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فأعد للقوم وليمة فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء عيونه داكية وهو معني بما يليه قد اتخذ حالا كهيئة السلاليم وأوهاقا فلما امسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدمهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا الحبال الشرف وعلى طهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور واثبتا الاوهاق بالشرف وتسلق حالد وأصحابه وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق وأشده مدخلا ولما استووا على السور حدر حالد عامة أصحابه والحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الدين على رأس السور فهد[1] المسلمون الى الباب ومال الى الحبال

(١) في القاموس نهد الرجل نهضا ولعدوه صمد لهم

بشر كثير وثبوا فيها وانتهى حالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما دقى مما يلي باب خالد مقاتل الا أثخنوه ولما شد خالد على من يليه وبلغ مهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت الى أهل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وابعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا امنونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب تصالح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلح دمشق على المقاسمة الديار والعقار وديار عن كل رأس فاقتسموا الاسلاب وكان أصحاب خالد فيها كاصحاب سائر القواد وحرى على الديار ومن بقي في الصلح حريم حنطة من كل حريب ارض ووقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيأ[1] وقسموا الذي الكلاع ومن معه ولأبي الأعور ومن معه وابتير ومن معه (وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق الى العراق فسرحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو

(١) "الفيء" هو ما نيل من المحاربين بعد وضع الحرب اوزارها وصيرورة داره دار الاسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يصالح عليه من المال وحكمه ان يكون لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلا في كتابنا الذي سميناه الاقهام الى مصالح هيئة الاجتماعية في الاسلام [ونقول] ثمة ان ما ترمي اليه مقاصد الاشتراكيين في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه معقول لا يصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذريّ فى سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبرى وقال ان فتحها كان بمالئة الاسقف الذى كان أعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها فى أول مجيئه الشام وذلك بان أرسل اليه الاسقف بعض أصحابه وأعلمه بان القوم فى عيدلهم وان الباب الشرقيّ ردم وليس عليه أحد من الحرس (وقد مرت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب فى سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لمّا دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقيا فى دخولهما بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذى ذكره حسان ان ثابت فى شعره حيث يقول

يسقون مَنْ وَرَدَ البُرَيْصَ عليهم بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل

ولا يحمى ما فى هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت فى الاخبار أن أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذى تولّى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد وأمضاه له أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب عمر (رضى) بعزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبريّ فى روايته عن ابن اسحق والبلاذريّ فى تاريخه فتوح البلدان وفى هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر وكتمه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح وفى حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم فى الصفر فى انتظار كتاب عمر بالذى ينبغى أن يبدؤا به ما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر والله أعلم

واما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر فى رواية الطبرى على دينار على كل رأس وحريب من الحنطة على كل حريب من الارض وعلى المقاسمة على العقار والديار

على أن هنالك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء فى كتاب كتبه عمر بن الخطاب الى أبى عبيدة بن الجراح مانصه (وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاحرتكم عليها فهى للمسلمين واما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على ان المسلمين اختلفوا فى هل يشاطروا الدمشقيين على نصف ما وجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب ابو عبيدة يستشيره فى الامر فأمره أخذ خمس الفضة والذهب فقط وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته فى باب كتبه ان شاء الله

وقال البلاذرى فى فتوح البلدان مانصه «زعم الهيثم بن عدى ان أهل دمشق صولحوا على انصاف منارلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدى قرأت كتاب خالد بن الوليد لاهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا ادرى من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون انتهى ما نقله البلاذري من قول الواقدى ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذى اعطاه لاهل دمشق وفيه الامان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شئ وقد مرت صورة الكتاب فى سيرة خالد على انه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الأولى فان المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقى الذى يلي الباب الذى دخل منه خالد بن الوليد وجعلوه مسجداً لهم ومازال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعا لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بنى أمية وسيأتى الكلام عليه فى سيرة الوليد ان شاء الله

وأما باقى كنائس دمشق فالمعروف انه كان منها بيد هم عهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة وروى البلاذري ان بعضهم أقطع كنيسة منها لبني نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى النصارى هذا وأما الحرية فانها كانت في بادئ الامر دينارا على كل رأس كما علمت مما تقدم ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) في اليها على ثلاث طبقات على الغني بنسبة غناه والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما أجملنا ايراده من الخبر عن فتح دمشق الى كانت أم المدن السورية ومهد الصناعة الشرقية ورهبة البلاد وارداد بعد الفتح الاسلامي لاسيما في عهد الامويين مجداً على مجدها وعمراناً على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت الى يزيد بن أبي سفيان ثم الى أخيه معاوية ثم قدر لها ان تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الاسلامي العظيم الممتد من حدود الهند في الشرق الى شطوط الاطلانتيك في الغرب على عهد الامويين لا عاصمة سورية وحدها وسيأتي الكلام على هذا في محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون في الزمن الذي افتتحت به دمشق فروى بعضهم انها فتحت في اواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال في أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ وبعضهم قال انها فتحت في رجب من هذه السنة ولعله الاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألني بعضهم عن حكاية رآها في تاريخ انكليزي وهي ان خالد بن الوليد لما فتح دمشق صالح اهلها على أن من يريد منهم الخلاء يبل بعد سفره ثلاثة ايام فاغتنمت وادركه المسلمون فدمه مهدوروان هل دمشق حلو وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فعلوهم ولا يخفى ما في هذه الحكاية من العار على المسلمين يوم ثلثمائة لو صح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا وفى لأمم الفاتحة بالعهود وأبعدهم عن

مثل هذا الظلم الذي بأيديهم وتقرعنه شيمهم العربية واخلاقهم الفطرية فحسب
عن هذا الخبر فيما دونه رواة الاخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن
واضح المعروف باليعقوبي وفي تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الاثير الذي هو أوثق
التواريخ فلم أجد لهذا الخبر من أثر واعا رأيته في بعض تواريخ معاصرينا من
المسيحيين كتاريخ سورية لطرجي أفندي نجي وتاريخ الوافي لامين أفندي شميل
وكلا التاريخين وان كان مؤلفاهما عربيين الا أن عبارتهما تدل على أن مافي
التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربية البتة وان المؤرخين كانا أبعد
الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربية الوثيقة التي لم
تغادر كبيرة ولا صغيرة الا أتت على ذكرها تفصيلا في البعض واجمالا في البعض
الآخر ولم تهمل حادثة من أدنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هذه الحادثة
ولعل بعض مؤرخي الاوربيين الولعين بالبحث عن مساوي المسلمين وستر
محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازي والقصاصين كفتوح الشام وامثاله
من الكتب التي هي أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ أو عن
كتب مؤرخي الروم وهي لا تخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع

على أنه مما يوهن أساس هذه المرية ويدل على بطلان هذا الخبر ماقاله بعض
مؤرخيهم من أن المسلمين ادركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم
بعد انقضاء الاجل (وكان برعمهم ثلاثة ايام) ومن البديهي أن البلاد يومئذ كانت
كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة في البلاد واقفة
على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق
وحوران والناس واقفون لهم على قدم الاهبة في كل مكان لما يتوقعونه من
انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم

البلاد الى ماوراء اللاذقية وهذا حال أهلها من الرقة والاستسلام والعامل لجند المسلمين على تتبع أثر القوم لم عليهم عهد وميثاق فاذا قيل الطمع فيقال ان امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارجاء كثيرة الغنائم والخيرات وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يبرئ تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله الآمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوئ الشائنة وقد مرّ معنا في هذا التاريخ مايدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مهما بلغ بهم فساد الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما يتم لهم الفتح والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكن جندهم من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة مع أن العرب لم يكونوا في جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتل فكيف بهم في الاسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء طلما أن يعرضوا الأولئك المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال ان هذا لما تأباه نفوسهم العربية وتمجه منه المروءة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا ورد في كتب مؤرخي الروم فمصدره الغرض واذا ورد في كتب القصاصين فمصدره الجهل ولا يشك في هذا عاقل البتة

بحث

(في هل كانت دمشق قاعدة الغساسنة)

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج ان معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكلمة والسلطان الى أن قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي اذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب العربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمس في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم أن يتكرموا علينا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه في كل جزء لنبادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجي افندي ريدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ عليها ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل وتنبئ عن سعة في الاطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ويؤدي انتقاده علينا بهذا الصدد ان العرب لم يكونوا يومئذ الا في البادية وحوران وان دمشق لم تكن تحت يد غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بُصرى في حوران وانه لم يقرأ ان أحداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها الا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آله بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسوا في المكانة التي وصفناهم بها ونحن مع شكرنا لاحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالعجز عن بلوغ

تناقض الحمير في التاريخ تجده كما يلي

هذا ذلك الاستنتاج نحمله على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل ما مر عليه من البلاد في مروره على القلمون الاسفل وكان آخر فتحه مما يلي دمشق (قصم) وقاتل فيها بني مشجعة ثم انحدر إلى المرج من ثنية العقاب فقاتل فيه بني غسان والذي أوهمنا أن الطريق الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية الى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جعل الطبري آخر الفتح مما يلي دمشق وقبل وصوله الى ثنية العقاب (قصم) وانه قاتل فيها بني مشجعة من قصاعة على انا بعد ان كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت في معجمه عن (قصم) فاذا هو يقول انها موضع بالبادية قرب الشام فدل ما ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفاديا من ارتكاب الخطأ في وضع الطبري موضع اليقين كما رأيت في الجزء الماضي الا أن هذا اذا نفى قولنا أن القلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان من أماكن العرب بدليل ان ذلك القسم لم يزل من معاقل العرب الرحل الى الآن والبلاد التي فيه كضمير والقريتين وتدمر والسخنة كل سكانها من العرب بل وهناك بعض القرائن التاريخية التي تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوما بالعرب ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر في طرف البرية في وسط معاقل العرب

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أوديناثوس الذي قام وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التي كان أحدهما من الرومان ثم أسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية في أواسط القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون في أصله هل هو عربي أم سرياني

فاذا رجحنا كونه عربياً عرفنا موضع وطن الجراوي وهو تدمر بين دمشق وحمص
هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك
وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان
مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم . وكذلك
لا ينفي قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة
والحجاز كان مأهولا بالعرب فانه معلوم بالبداهة وكان اشهر مدنه بصرى
واشمسكين واطلعنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيد ان شمالي
سورية أيضاً كانت بعض مدنه مأهولة بالعرب فقد جاء فيهما ان أناعيد لما افتتح
قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومضر واهذا الحاضر لما
تنخوا فدعاهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم واقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ثم
اسلموا في خلافة المهدي العباسي وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين
كان من مدن العرب ولاسعد أيضاً ان يكون العرب هم الذين مصروا غزة في
الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون
وحق لقوم يشتغلون بالسكى قسماً عظيماً من سورية ويتوطنون في أحشاء
البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية أن يكون لهم من
النفوذ والسلطان في البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن
هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الدين
هم ليسوا الامن الحالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة
لدولة الروم الا انه لا يعقل أن يكون الجنس الروماني أكثر الاجناس القاطنين في
سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد
اذا تقرر هذا فلا بدع أن يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد

وان يكون لهم فيها قوة وسلطان لانهم دخلوا حرب كما انهم اهل ثروة وغنى لان البلاد التي هو فيها كحوران والكرك ومعان وبدمر كلها بلاد زرع وضرع ومن اخصب البلاد السورية ولم تزل كذلك الى هذا العهد واذا اضفنا الى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لا نكون مبالغين فيما قلنا عن استيلاء شأن العرب في سورية وان كان ذلك من قبيل الاستنتاج

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الاسلامي تحت الحارس (١) الغساني فاننا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول الدكتور فانديك سيأتي بيانه إلا أن هناك من الاخبار التاريخية ما يستنتج منه أن عاصمة بني غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الاخبار ماذكره الطبري في تاريخه عن مجيء خالد ابن الوليد من العراق الى الشام حيث قال مانصه

ثم نزل (يعني خالداً) الكتب حتى صار الى دمشق ثم سرح راهط فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الايهم (يريد به جبلة) الخ الخبر

وجاء في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذي معه وغضب وقال من ينتزع مني ملكي الخ

ولما وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل اسلامه على آل جفنة وهم ملوك

---

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جبلة بن الايهم

غسان امتدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأول

ومنها

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من وَرَدَ البريصَ عليهم ... بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل

والبريص الذي جاء في الابيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي هو نهر دمشق وحلّق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا في خبر فتح دمشق ماقاله البلاذري في تاريخه من أنّ خالداً وأبا عبيدة التقيا في دخولهما الى دمشق بالمصلاط وانه هو البريص

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بانهم كانوا قبيل الفتح أصحاب السيادة على دمشق والذي يترجح عندنا أنّ الفرس لما دوخوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكاً على الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شعب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الاسلامي بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم ترل عامرة الى هذا العهد فاذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح انما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران وآله بيدي قيصر الروم يصدّهم عاديات عرب العراق (كما قال صديقنا جرجي أفندي زيدان) فما علاقة جبله

بسواحل الشام وما الداعي له لتصير الامصار في أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لحبلة أن يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور ماندیك في المرآة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصه

وكانت (يعني دمشق) قبل الاسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثاني والثالث من الابيات التي سبق ايرادها

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبيل الفتح الاسلامي وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها والسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا في محلته من عهد قريب نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ولا مراء في أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفي سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يوم مذ قول بولس في رسالته الثانية الى الكورنثيين وهو بنصه

(وفي دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام وعداهذا فانا اذا رجحنا قول القائلين بان أصل ودينا نوس الدمري لدى سبق ذكره عربي لا سرياني (والجنسيين من أصل واحد) فلا يستبعد ان يكون ملوك العرب من السلطة في الشام قبيل الفتح الاسلامي ما كان لهم على عهد ضيباريوس قيصر

وعلى عهده ودياثوس الذي تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة الى مصر وأرمنيا وسطورتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا في تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا هذا على غموض تاريخ هذه الامة العربية وما زلنا العلماء يجدون في البحث عن آثار الامم القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد عرب من تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الامة منتهى درجات المدنية في العصور الغابرة والله أعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأى المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل الا انهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم في بيسان وكانوا ثمانين الفا على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبري فاختاروا مناجزة هؤلاء أولاً فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرحبيل بن حسنة اذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل صرار بن الازور وعلى الرجل عياضا ولما انتهوا الى أبي الاعور (وقد كان بين الاردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدموه الى طبرية فحاصروها وهم نزلوا بفحل وكان الروم شقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي حد المسلمين فاصبحوا بين حطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأحدتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

الطلع والاخطر ابسمن نفوسهم فكنا أشبع منهم الخيل وأقدم حسن التدبير

فلما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل وأرسلوا العيون الى جيش

عظيم العدو بيسان فكتبوا الى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم

في رغد من ريف الاردن والروم في ضنك وقد طمعوا في المسلمين لقلة عددهم

فخرجوا عليهم بقيادة قائدهم سقلار أو صقلار ورجوا أن يأخذوهم على غرة

والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح

الا على تعبية واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد

قتال كان ليلتهم ويومهم الى الليل فاظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى

وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوهم

فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا في الهزيمة الى الوحل فأدركتهم أوائل خيل

المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الرداع لما لاقوا فيها من الوحل

الذي كانوا له كارهين فكان عونا لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف

أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد الى حمص ومضى بدي الكلاع الحميري الذي كان

مرابطا بين جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو وأوقعوا الرعب في قلوب الروم

فتأهب كل أمير لقصد الجهة التي ولي حربها فسار أبو عبيدة الى حمص وسار

شرحبيل الى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبي سفيان للخروج الى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل الى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل

ابن عمرو وكلهم من انجاد قريش وساداتها فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم

بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياما ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقي على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أما الاعور علي ان يبلغهم شرحبيل ففعل فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم فى مدائن الاردن وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده فى دمشق والاردن وبلغه مسير أبى عبيدة الى حمص رأى أن يرسل جيشا الى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الاسلامية عن دمشق فتستردها جنوده من يزيد بن أبى سفيان فارسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله تيودور) فنزلا الجيش فى مرج الروم غربى دمشق وبلغ ذلك أبا عبيدة فجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر. فلما رأى لما رأوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه فى حريدة وبلغ يزيد بن أبى سفيان إقبال تودر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وقتل خالد توذرا وقال

نحن قتلنا توراً وشوذراً وقبله ماقد قتلنا حيدرا
نحن أرزنا العيصةَ الأُكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توزر وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم الى حمص وتبعهم بعض المسلمين فلما انتهى الخبر الى هرقل أمر عامل حمص بالمسير اليها وسار هو الى الرها (اورفا) وفي رواية الى انطاكية وقال للعامل بلغني أن طعامهم (يعني المسلمين) لحوم الابل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم الا في كل يوم

باردة فانه لا يبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهزر من القول الا اذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذى علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء بآخر ما عنده من وسائل القوة والتحريض كى لا تهن نفوس الجنود ولا يستولى اليأس على صمائر الشعب

﴿ ذكر بعلبك وحمص ﴾

(وسواحل دمشق)

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبى سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير الى سواحل دمشق وأن أبا عبيدة قصد حمص ولما جاء تودر الى مرج الروم تربص يزيد وعاد اليه أبو عبيدة ولما انتهى أمر تودر لما انتهى اليه قصد يريد سواحل دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن أبى سفيان فابتدأ بصيدا ففتحها ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت وجلا كثيراً من أهلها ممن رغبوا الجلاء وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ورممها وشحنها بالمقاتلة وأقطعهم القطائع وانما تحرأ الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم على السواحل فلم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق عسك وقدم اليها السمط بن

الاسود الكندى وقدّم خالداً الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبى عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباستأنى صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا يتادون المسلمين القتال ويراوحونهم فى كل يوم باردولتي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما اشتد عليهم الامر طلبوا من أبى عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق وأنزلها السمط بن الاسود الكندى فى بنى معاية والاشعث بن ميناس في السكون والمقداد فى بلّي وأنزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

أما أبو عبيدة فقد بعث بالاخماس وخبر الفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبدالله بن مسعود فكتب اليه عمر .. ان أقم فى مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فانى غير تارك البعث اليك بمن يكافئك ان شاء الله

﴿ تحقيق خبر أجنادين واليرموك ﴾

(واختلاف المؤرخين فيها)

اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين واليرموك لا من قائل ان الأولى كانت قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الرمس الذي وقعتا فيه ويكاد يشتبه عليه أمرهما فيتخيل له ان الوقعتين واحدة أو ان الواقعتين كانتا في اليرموك واحدة في خلافة أبى بكر والأخرى في خلافة عمر رضي الله عنهما وذلك لما فيهما

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين وبما لم يقعوا في هذا الاضطراب لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من طريق الرواية فاذ بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي اذورد جبون[1] في (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنساوي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب[2] فلم أعثر على ما يشفي العليل ويزيح ستار اللبس فان الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣ م) الموافقة سنة (١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا أجنادين وأما الثاني فقد قال إن ما رآه في تاريخ أبي الفداء في شأن اليرموك يعروه اللبس والاشكال وأن هذا يوجب الارتياب في كلام الشرقيين أكثر من الارتياب في كلام العربيين الى أن قال وهذا الملهم من كلامهم يدعو الى الظن انه حدثت واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الاولى قبل فتح دمشق والثانية بعد الاستيلاء على حمص

ولقد كاد يحاريه في هذا الظن وأن هناك التباساً في الاسم وأن الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد لولم نر أن ياقوت فرق في معجمه بين المكانين فقال ان اليرموك واد في طرف الغور يصب في الاردن وأن أجنادين موضع بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما أن الطبري أيضاً قال عن أجنادين انه بلد من أرض فلسطين من عمل بيت جبرين

وبما ان حصول الواقعتين لواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر

(1) Gibbon's Roman Empire

(2) Arabie par M. Noel Desvergers

محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي نريد الوصول اليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق وأيهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان أجنادين هي الأولى واليرموك هي الثانية وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي[1] وجعل اليرموك بعد حمص وأما الطبري فانه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الاول أي قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع ويكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لو لم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هي التي اجتمع عليها الامراء ووافاهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التي بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية وأما المتأخرون فاذ كان اعتمادهم في سرد الوقائع على ما دوّنه أولئك اصطربوا أيضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم الا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما أن بعضهم قال ان أبا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك برغم انها بعد فتح حمص مع أن المرجح أن اليرموك هي الوقعة التي حصرها خالد بن الوليد لما جاءه نجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطائهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة الى حمص قبل محيء خالد من العراق فبسطت في الجزء الأول هذا الاحتمال خطأً اداء الحقيقة الى ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ أن رجوع أبي عبيدة من حمص انما

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا في ليدن ويوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية

كان بعد فتحها ويوم شذا اجتمع على الامراء في أجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقائع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها انّ هناك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الاولى وحدثت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادي سنة ١٣ وأجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا أنه أورد خبر اليرموك وأجنادين الأولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل أجنادين أو بالعكس أو كانتا وقعة واحدة ونؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في أجنادين لم يحصرها خالد بن الوليد وانما هي اما أن تكون لخالد بن سعيد لما بعثه أبو بكر لاطراف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان أو ماهان على روايه مؤرخي العرب ووردان على رواية الدوردجون الانكليزي واما أن تكون مع الامراء في أول دخولهم الشام لما بعثهم أبو بكر في اثر خالد بن سعيد ثم لما واقعوا اباهان وأوقعوا به تفرقوا في انحاء الشام وسرب لهم هرقل الجنود فعادوا الى اليرموك واستجدوا أبا بكر فأمدهم بخالد بن الوليد فواقعهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم خذل وكان الفتح ثم سار أبو عبيدة الى حمص وفتحها أرسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية حتى معت في فلسطين فعاد أبو عبيدة والامراء الى حيث يجيء جند الروم في أجنادين فكانت وقعة أجنادين الثانية والظاهر ان بعض المؤرخين وهم الادريسي واليعقوبي وقعة

أجنادين واحدة فاعتبروا الاولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الامراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ماقاله ياقوت فى معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الاردن ثم يمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين وساق مجمل الخبر كما ذكرناه فى الجزء الاول ثم قال وقال القعقاع بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام فى أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر نجتدهم بالبواتر
وحثثنا الى بصرى وبصرَى مقيمة ... فألقت الينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قاتلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الابيات التى تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم فى اليرموك

وأما أجنادين الاولى فان الذي يرجح انها كانت فى أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو ماروواه بعض المؤرخين من ان أبا بكر بُشِّر بانتصار المسلمين على الروم فى أجنادين وهو بآخر رمق مع أن انتصار المسلمين فى اليرموك كان فى جمادى الثانى بعد وفاة أبى بكر وانما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك

وبهذا ما وصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث في تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين الى قبلها وأما أجنادين الثانية وهى التى كانت عقب فتح حمص واضطر

أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقى الامراء لمصادمة الجيوش العظيمة التى أرسلها اليهم هرقل واجتمعت فى فلسطين ثم فى أجنادين فقد ذكر خبرها الطبرى سنة (١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي الا أن هذين زعما أنها وقعة اليرموك

على ان القرائن التى تحف بهذه الوقعة التى حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت فى أجنادين وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأردن وعماله الاردن كانت سقطت يومئذ فى أيدي الجيوش الاسلامية وهم فيها مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضى على سلطان دولتهم فى سورية بالانقلاب لهذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه الى الاردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذى كان يقصدها من الأردن ومعاوية بن أبى سفيان الذى عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول أن هرقل لما جلاء عن حمص وأقام فى انطاكية أو الرها ووصلته الاخبار بتغلب المسلمين على جيوشه فى كل مكان ورأى أن أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال وقطع طرق المواصلة والامداد ما بينه وبين الحدود الرومية من جهة البر أرسل جيوشا عظيمة من جهة البحر لتكون مددا لأهل فيسارية وعزة واليباء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أتت من يافا وعسكرت بأجنادين لقربها منها اذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا والرملة وأجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك ما رواه الطبرى وغيره فى شأن فيساريه وغزة وأجنادين

﴿ فلسطين وأجنادينه ﴾

لما انصرف أبو عبيدة من حمل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم أهل الأردن قصد عمرو فلسطين وكتب الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بتمرقهم فكتب الى يزيد بن أبي سفيان أن يُدْفِئ ظهورهم بالرجال وان يسرّح معاوية الى قيسارية [1] وكتب الى عمرو بصدم الارطبون وكان في اجنادين والى علقمة بن مُحَرِّز بصدم الصيقار وكان في عزة وكان مما كتبه الى معاوية (اما بعد فاني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوّة الاّ بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل أمير لما أُمر به وسار معاوية الى قيسارية وكان فيها من المقاتلة مائة الف أو يزيدون على ما وُصف من كلام الطبري فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بني الصنيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن عَلْقَمة الفِراسيّ وهبير بن الحلاب الحِمْيَريّ وأمرهما أن يتّبعاهما ويسقاهما فلحقاهما فطوياهما وهما بأثمان وابن علقمة يتمثّل

أرَّقَ عيني أحو حُدام ... كيف أنام وهما أمامي

اذ يرحلان والهجير طامي ... أحو حُسَيْم وأحو حرامي

وأما علقمة بن مُحَرِّز فحصر الصيمار بعرة وجعل يراسله فلم يشعر مما يريد أحدٌ فأتاه كتاب رسول علقمة فامر الصيقار حلاان يقعد له بالطريق فاذا مرّ قتله فقطن

---

(١) هذا الاسم معرب قيصرية وهما بلدان واحدة تسمى قيصرية فلسطين وهي خراب الآن وخربت على عهد الصالحين والاخرى قيصرية فلسطين وهي باقية على ما قاله وذكرت

علقمة فقال انّ معي نفراً شركائي في الرأي فأنطلق فآتيك بهم فبعث الميقار الى ذلك الرجل لاتعرّض له فخرج من عنده ولم يعد وفعل كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

وأمّا بريد معاوية الذي أرسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع الناس ليلاً وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية وأباتهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار نحيشه نحو الأرطبون وكان من كبار القواد ودهاتهم وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمر بن العاص عند العرب فتقدم نحوه عمرو وهو محيّم باجنادين بحند كثيف وعلى مقدمة عمرو شرحبيل وعلى مجنّبتيه عبد الله بن عمرو وحُنادة بن تميم المالكيّ مالك بن كنانة وقد كان الأرطبون وضع بالرملة جنداً عظيماً وباليباء جنداً عظيماً فكتب عمرو الى أمير المؤمنين بالخبر فقال قد رميا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرج وكان عمر رضي الله عنه من لدن توجه امراء الشام يمدّ كل أمير جند ويرميه بالمدد حتى اذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن أبي سفيان بان يبعث معاوية في حيله الى قيسارية وكتب الى معاوية كتاباً بأمرته على قتال أهل قيساريه وقد مرّ ذكره وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق ابن فلان المكيّ على قتال أهل ايلياء وبعث أبا أيوب المالكيّ الى الرملة وعليها الدّارِق ولمّا تتابعت الامداد على عمرو وبعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق وبعث عمارة بن أميّة الحميريّ مدداً لابي أيوب وأقام عمرو على احاديين لايقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشيه أرسل هو بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما ورد تحدّث أرطبون نفسه بانه عمرو بن العاص فوسعه في الطريق من بيته وقضى له

عمرو فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التى احتال بها علقمة على القيقار ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال: خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق وبلغت عمر بن الخطاب فقال - غلبه عمرو لله عمرو -

لما عرف عمرو ما أخذ الأرطبون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد أن يقف عليه زحف عليهم بجنده واقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك فانهزم أرطبون فى الناس وأوى الى إيلياء ولما وصلها أفرح له المسلمون الدين على حصارها فدخلها ثم ازالهم الى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التى اضطرب فيها المؤرخون وحملها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك فى ابيات القعقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبري فى سياقها اسم ابى عبيدة وخالد وانهما حصرا بعسكرهما من حمص الا انه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد اجنادين ذكر فى جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذى كان على حصارها هو ابو عبيدة فاذا اضيفت هذه الرواية الى ما ذكره البلاذري فى فتوح البلدان واليعقوبى فى تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لانجاد بقية الامراء فى اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لا سنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهموا لتشابه الوقائع وقرب المكانين احدهما من الآخر بان وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح أن ابا عبيدة وخالداً حصرا وقعة اجنادين هذه هذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية فى اليرموك كما كانت وقعتان فى اجنادين الا ان القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقم عليه دليل واضح في التاريخ وأما القول برحيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص

سنة (١٥) أي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لأمداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد أن فتح حمص

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبعثه اليهم من لاقبل لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب وكتب اليهم عمر انه قد كره رجوعهم من أرض حمص الى دمشق وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى أن قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة الى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر أرق عدة ليال واشتد تطلعه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجداً وقال الحمد لله الذى فتح على أبي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد بن الوليد اه

وأما ما نقله البلادري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ومؤداه أن المسلمين لما لقيهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من أهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصركم والدفع عنكم فانتم على أمركم فاقتسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأحاديث بسطناها هنا مع ما في كثرة هذه الاقوال من التشويش والاختلاف لتكون العهدة على بينة من الحقيقة والله بها عليم

﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ففتح عمرة ولُدّ ونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا وقيل إنّ يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة حبيّة ويطلب اليه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليه وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر. فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول. إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً اذا حرت لك فرأيك ولما انتهى الكتاب الى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية (١)

وفي رواية للطبري أن أبا عبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب قدوم عمر الى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيده أن يصالحهم على صلح مدن الشام وان يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وكتب للامراء أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وان يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أوّل من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع بالتقشف واردرى بنعيم الحياة الفانية أن يرى آثار النعم بادية على قوّاده على قرب عهدهم بالحوشية وتحلهم بخلق العفة والجد والصلابة فنزل وأخذ الحجارة فرماهم

---

(١) قال ياقوت: الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج العسر في شمالي حوران وقال لها جابية الجولان أيضاً قال الحوّاس بن القعطل

أعد لمالك ما شكرت بلاءنا ... فكُلٌ في رخاء الأمن ما أنت آكلُ

بجابية الجولان لولا بن جدل ... هلكت ولم يسطق لقومك قائل

بها وقال: سَرْعَ ما لُفتُم عن رأيكم اياي تستقبلون بهذا الزي وانما شبهتم منذ سنتين سَرْعَ ما تندّت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم: فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعة [1] وأن علينا السلاح. قال: فنعم اذن: وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح فقال ماشأنكم فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمّنوهم وأمّنوهم واذاهم أهل إيلياء

كان أهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام انهم مأخذون لا محاله وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت وحاولوا اذا سلموا المدينة للمسلمين ان لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حربهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومهبط الانبياء والظاهر انهم حاولوا هذا السبب على كنيستهم العظمى أن يسرعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة ان يحرمهم منها الفاتحون مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشريعة الانصاف مع المعاهدين وكانوا اذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنّة لمن بعدهم في معاملة أولئك المعاهدين لا يحيد عنها أحد من المسلمين وانما هو اروع أحد بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يشرطوا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فطلبوا من الامراء حصروه نفسه ومعه وصول أمير المؤمنين

---

(١) قال في القاموس لمع الرجل ومع من باب نصر كذا في

الى الجابية أوفدوا اليه ذلك الوفد فتلقاهم المسلمون براية الامان فاخبروا أمير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن أهل إيلياء وأن أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيّرها والرملة وحيّزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً وكتب لأهل إيلياء خاصة كتاباً ستر دصورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل علقمة بن حكيم على الرملة وأحوارها وأنزله الرمله وجعل علقمة بن مُحرِّز على إيلياء وأحوارها وأنزله إيلياء ونزل كل واحد منهما في عمله في الخنود الي معه وصمّ عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهيا الى الجابية وافاهما عمر (رض) راكباً فقبّلا ركبته وصم هو كل واحد منهما مخصمها

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له بردون فركبه فلما سار جعل يتحلح[1] به فنزل عنه وضرب وجهه وقال . لا علّم الله من علمك هذا من الخيلاء ولم يركب بردونا قبله ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبه ثم سار حتى انتهى الى المسجد الاقصى ليلا فدخله فصلى فيه ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة وتقدم فصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكعب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال ارقبوا لي كعباً) فلما أتى به قال له أين ترى ان نجعل المصلى فقال الى الصخرة فقال ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك فقال أحببت أن أباشره بقدمي فقال قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبله مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة فجعل قبله صدره

(١) تصرب وتمايل

ثم قام الى كناسة [1] قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس فى زمان بنى اسرائيل وقال: يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى أصلها وحثا فى فرح من فروح قبائه وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة [2] فى كل شئ فقال ما هذا فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره. فقال على به فأتى به فسأله عن سبب تكبيره فقال يا أمير المؤمنين انه قد تنبأ على ما صنعت نبى مند خمسمائة سنة وسرد له خبراً طويلا من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم أن يظهر كعب الاحبار سروره ويكبّر لصير بيت المقدس الى المسلمين وهو اسرائيلى الاصل يعلم سوء ما لاقى بنو اسرائيل من الرومان وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذى منعهم من حرية التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبدهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لاهل الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعتمال حيثما كانوا وأنى قاموا ولهذا السبب كان اليهود فى سوريه يمنون إدالة دوله الروم ويحرّضون عليهم المسلمين ومن ذلك ما رواه الطبرى ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قيل فتح إيلياء جاءه يهودى من يهود دمشق وقال له يا أمير المؤمنين لا ترحل لى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازماً له حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) كناسة الروم ... هيكل بنى على صخرته وكان الروم ... (٢) الرعة أى الحسن على كبره وحداثة ... حسن الثوب فى دل ثوبه ورعة بكسر الراء ... وهو صدره ليخرج ... سمع ... من ... كره سوء ...

﴿ بحث في الاسلام ﴾

رأيت ماقاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لانحب ان يفوتنا البحث فيه لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول

أولع الانسان بالافراط كما اولع بالتفريط في كل شؤونه الروحية والجسمانية ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة في أعلى عليين او يهبط بها الى مقر الشرور في اسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به ألزم وطريق النعيم الحيوي لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوامها وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها بل ولكان اكتفى بدين واحد قويم وشرع آلهي مستقيم ولم يشوّه وجه الشرائع ولم يدّع لتعدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجَلْ اولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فبينا يكون هذا في طرف التفريط مارقا من كل دين منكرا لكل نحلة هائما في المادة التي يتناولها حسه وينكر ماوقها عقله يكون الآخر مسلما لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالبا بخياله مايظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأوّل مايلاقيه في طلبه يعلق بقلبه ويطمئن منتجع عقله والغاية التي يطلبها في سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه أمله ويختص به عمله فيغلو في عبادته غلو المادي في مادته حتى يساويه من طرف الافراط بالتوحة تارة للاقمار واخرى للاشجار وآونه للاحجار ووقتا للارواح وآخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل في المادة قريب من متناول الحس. فكأن العقل الانساني في حال الايمان والكفر أسير المادة لا يفلت من شرك الحس ولا يدعى الى مافوق المادة ويصعد الى أقصى الكمال الالهية ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الانبياء ويطمئن الى التسليم بقوة آلهية تفوق قوى المادة

وتعلو عن العقل وتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ثم لا يلبث أن يحط عن هذه المرتبة فيعود الى نحيزته الاولى للهبوط الى هوة النقص والتوجه الى مظاهر المادة ولو تدريجاً حتى يلتصق بالحضيض ويعود الى الشرك وهو يظنه الايمان ويخاله منتهى العبادة وإن من دين الاصيب اهله بهذا المصاب واشركوا مع الله الارواح تارة وأخرى الانصاب توسلا اليه على زعمهم بالحس وارتياحا الى ما تحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له مفتقرة اليه وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به اليه بل هو كما قال في كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) الآية

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين ابراهيم الذي هو كباقي الاديان الالهية دين التوحيد بالله والايمان بانه تعالى خالق الكون وما فيه وإنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ومن التمسك في العمل بأهداب الشرك ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا الى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح الى الاعتقاد بالاشخاص ثم الى الاعتقاد بالانصاب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل في المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون انهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها اليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وهذا من الاعراق في الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لاصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم سائر أرباب الاديان مما لا محل لبسطه الآن

اذا تمهد هذا علمنا ان الاسلام عما جاء به من آيات التوحيد خالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد باي أثر من آثار المادة وصرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس لتوجه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله في القلب وتمكين الاعتقاد بان الأثر الواقع تحت الحس إنما يقوم قوامه بالمؤثر المستحصر في الضمير الخارج عن الحس اذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس ينحي من مزلة القدم الى الوثنية المفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وإنما الانسان مادة وهذه أعراض منها تنمو وتعظم في النفس ما دامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى والتوجه لأي أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وانما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الافهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين والاحاطة باسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة واليك الدليل

أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجها قال فقرأنا في الفجر (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) « ولايلاف قريش » فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال ماهذا قالوا هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له فيه صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض .

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد لا صلاة فيه تعظيماله كما استشعر به عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم أنت أعظم الناس فهما للاسلام وعلما بنواهض الدين ووقوفا على مقاصد النبوة المحمدية وما كانت تدعو اليه من التوحيد البحت الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها هم أهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين أنجما كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولا رموا الرسول بلا رمة الظل فاكتنهوا سر شريعته وأدركوا مرامي غرضه وقلدوه في أعماله وأفواله وانتهجوا منهجه واهتدوا بسيرته فقد قوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ومن هؤلاء من هم في المرتبة الأولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وأنعم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ما هو التوحيد الذي أرشد اليه الاسلام وعرفه أولئك الصحابة الكرام فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الاحبار لما أشار عليه بحمل المصلى الى الصخرة لقد ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك[1] فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة وقدمر الخبر في الفصل السابق نقلا عن الطبري ولأجله عقدنا هذا الفصل ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون

تقدم معنا كيف تدرج العرب في الوثنية حتى أنسوا بلمس الاحجار وعكفوا على عبادة الاصنام وأن أصول التوحيد عند أرباب الاديان كلها أفسدت تدريجا كما حصل في دين العرب وانما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور بوجوب معبود مطهر من مضاهي المادة يضرع له صلة بينه وبين المادة كما تقدم مثلا

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٩ طبعة أوربا يبحث عن

ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ويتعدى المظهر الأول الى غيره ويتدرج في أطوار التعبد له حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان بآله واحد فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة أو لها صلة بها وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمي اليها بل من أولاها بالاهتمام وأجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ولو أشبه بدقته دقة الحرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منبتاً صالحا لها تولد عنها ما لا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات أو يبيح تعظيم أي مظهر من مظاهر المادة تعظيما دينيا فقد أخطأ وسبب العبث الى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من أخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه التي مر إيرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوأً الا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان اولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ورحم الله امرءاً حاسب نفسه وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونبذ بدع النفوس وأهواءها وتنكب مواضع الزلل ومواقع الخطل وسؤ الفهم

والله ولي الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿ فتح حماه واللاذقية وقنسرين ﴾

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالا الى انطاكية فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص الى إيلياء أى سنة (١٥) وقيل إنه فتحها بعد عوده من إيلياء سنة (١٦) وعندى أن هذا الاصح

سار أبو عبيدة الى معرة حمص فصالحه أهلها على صلح حمص وسار الى حماة فصالحه أهلها أيضاً وبعث خالد بن الوليد الى قنسرين وسار هو الى اللاذقية وقيل بل سار اليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها أياماً فاحتال على فتحها بأن أمر الجند أن يحفروا أسراباً فى الارض كل سرب يستر الرحل وفرسه فاجتهد المسلمون حتى حفروها ثم انهم أظهروا القفول الى حمص فلما حن عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية عارون يرون انهم قد انصرفوا عنهم فلما أصبحوا افتحوا ابوابهم وخرجوا وأخرجوا سرحهم فلم يرعهم الا تصييح المسلمين إياهم ودخولهم من باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا الامان على أن يتراجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسع بعد

ثم أخذ عبادة يتم فتح عماله اللاذقية بأمر أبى عبيدة ففتح جبله وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥هـ) او سنة (١٦)

وأما خالد بن الوليد فانه لما وصل الى حاضر قنسرين زحف اليه الفا قد من بنى أمية بجيش الروم فاقتتلوا قتالا عظيماً وقتل من بنى أمية فاما الروم فتوالى على دمه وأهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم في حيم الشعر ثم ابتنوا المنازل فارسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فدعاهم الى الاسلام فاسلم بعضهم واقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف فتركهم خالد فاسلموا بعد ذلك بيسير وقيل أسلموا في خلافة المهدي العباسي ولما فرغ من حاضر قنسرين[1] فتحصن أهلها منه فقال. انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزل لكم الله الينا فنظروا في أمرهم وما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا اخراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ولا تثبت أمامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذا نصروا الحق وتمسكوا بعرى الايمان فكانوا يداً على من ناواهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير أولئك الماتحين الاحياء الدين جمعتهم كلمة الاسلام على الاخوة الى لا تنفصم عروتها والطريق الى لا يضل سالكها الا اذا انحرف عنها وراع عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم الى الرها (أورفا) في الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها في يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا في غير هذا المحل يقطنون لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت على يد الامراء من بني نسيئس التوحيه ثم أخربها عن آخرها باخ الدولة . وأما حاصر قنسرين فقربه قرية منها

من قِبَل قَرْقيسيا وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عُقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين ما يلي الشام خالد بن الوليد وعياض بن غنم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القوّاد الى أماكنهم دون حرب. ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال: أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني [1] وقد كان عزله كما مر في سيرته وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما

وأما هرقل فانه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير مما معك وتمرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم الى كان أول من دخلها منهم وأسبح كلابها وأنهر دجاجها زياد بن حنظلة وهو صحابيّ وكان مع عمرو بن مالك مسانده

وكان ادراب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت فقال له أخبرني عن هؤلاء القوم فقال له أحدثك كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون دمتهم [2] الا بثمن ولا يدخلون لا بسلام. يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه فقال هرقل ان صدقتني لتطئن ما تحت قدميّ هاتين

---

(١) وفي رواية ان عمر لما عزل خالد بن الوليد كتب اليه في سيره خالد (٢) هي من أهل الذمة التي يحق لها العيش في دمشق

هذه الصفات السامية التي قل أن تجتمع في واحد من الناهضين في أي عهد من العهود لاستطال بنو ملك الشام على ملوك الدول لأحد هم القليل وعددهم الضئيل فيا رأيت عند الروم والفرس وعديدهم وضخامة ملكهم ومناعة دورهم ولهذا استشعر عمر قلق يضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من عود ملكه في الشام وما يليها اليه فوقف للباقي منها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعا تلك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليك السلام يا سورية سلاما كالاجتماع بعده ولا يعود اليك روم أبدا الا خائفا حتى يولد الولد المشؤم وليته لا يولد ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم :

وفي رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ولا يعود اليك روم أبدا الا خائفا حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد .

(فتح حلب وانطاكية وغيرهما)

بعد أن تم لأبي عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار الى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فوجد أهلها متحضين فنازلهم فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومعابدهم والحصن الذي بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد وكان الذي صالحهم عليه عياض ولما انتهى اليهم أبو عبيدة أمضى صلحه . وقيل إن أبا عبيدة لم يحد أحدا من المقاتلة بحلب وان أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح عادوا الى مدينتهم وبينا أبو عبيدة في حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندي فأحصرهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وصالوا في انطاكية وكتب الى عمر بذلك فيمن اليه كتابا بلومه فيه فرجع وفيها ثم قصدها ابو عبيدة حاصر حلب وكان بحاصر قنسرين يجمع اليه ما من العرب فصالحهم ابو عبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك وحاولوا البيد وفاة الرشيد العباسي الاستيلاء على حلب فاستنجدا هل حلب من حولهم من العرب ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الامين فيها فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل اهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين فحملوهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فقوم نزلوا تكريت وقوم ارمينيا وغيرها

ثم قصد ابو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير من قالة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها وبعثوا الجيش منهم الى مهروبة على فرسخين من انطاكية لصد المسلمين فلقي أبو عبيدة هذا الجيش فهضمه وألجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والحلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم منهم دينارا أو جريب حنطة وسار عنهم فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري ففتحاها على الصلح الأول . ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقضت بعد رجوع ابي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من ايلياء عمرو بن العاص ففتحها وممن قال هذا البلاذري في فتوح البلدان وما لحاله صواباً

وكانت انطاكية تسمى موقعها الحمراء وحصانتها وتوقها على مدن سورية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين من أهل الحسبة والرأي يرابط فيها وان لا يحبس عن ذلك الجيش العطاء وهكذا فعل بعده عثمان رضي الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يومئذ والي الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم القطائع ففعل

وبلغ أبو عبيدة بعد فراغه من أمر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرّة مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرّق خيوله في انحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع أرض قسرين ثم سار أبو عبيدة الى حلب وقد نقض أهلها فنازلهم وأحصرهم ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسيّر عياضا وحبيبا في جيشين من المسلمين فأتما فتح سورية الى حدود الفرات شرقاً وأسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا وضمّ اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي الى أطراف أسيا الصغرى فلقي جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الاشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وعادوا جميعاً سالمين غانمين وسيّر جيشاً آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها وأخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاه الى اخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم والاّ فربما يكون أخرب حصنها فقط لئلا يعتصم به أهلها بعد ذويتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى أمر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في عصونها من العناء وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد عليهم عالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الاثر العظيم والبلاء الجسيم ما لم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لاسيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وخالد ابن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً فقد روى الطبري أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان (القرشية) في جولة. وقال البلاذري وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً وحملت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول عضدوا الثلمان بسيوفكم

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام أهوالاً شداداً وصادموا عدواً استماتت في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه اذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً وإقداماً وجراءة من العرب يدلك على هذا ما ظهر من الروم في الوقائع الأولى التي حدثت في اليرموك ودمشق وحمص وأجنادين وغيرها وعداهدا فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم منها في الشرق والغرب وسار أبو عبيدة عن انطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية في سنة (١٧ هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قادم بجند كثيف الى حمص من طريق البحر واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبو عليه وأرسلوا اليه إنا قد عاهدنا المسلمين فنخاف ان لا ننصر وكان أبو عبيدة في حمص فاستمد حالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده الى هرقل وحاصر هذا أبا عبيدة في حمص فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بمناجزة وأشار غيره بالكتابة الى عمر ومطاولة هرقل ريثما تأتي مدد الجنود فعمل برأيهم

وكتب الى أمير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين الفاً على ما رواه الطبرى وبلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن أبى وقاص فى العراق ان أبا عبيدة قد أحيط به ولزم حصنه فبُثَّ المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن أهل حمص وكان عمر أعد فى كل مصر مدداً من الخيل لكون ان كان وكان فى الكوفة أربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بث بالجند مع القعقاع بن عمرو وعبدالله بن عتبان وسهيل بن عدى وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً الى الجزيرة فيقصد واحد قرقيسياء والآخر الرقة والثالث نصيبين والرابع حرّان والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممداداً لأبى عبيدة حتى نزل الجابية وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم وبادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن امدادهرقل فدب الفشل فى جنوده وراسل طائفةٌ من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لا يحب الغلبة الا بقتل صفوف الاعداء ومناجزتهم فى الهيجاء فأرسل الى تنوخ والله لولا انى فى سلطان غيرى ما باليت أقللتم أم أكثرتم أو أقمتم أو ذهبتم فان كنتم صادقين فانشّوا[1] كما انشّ أهل الجزيرة ووعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لابى عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بنا الى خالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالك لا تتكلم فقال قد عرفت الذى

(١) نهال انهش الرجل أى فر وكسل

كان من رأيي فلم تسمع من كلامي . قال : فتكلم فاني أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقص من عدتهم (يعني الروم) وبالمدد يقاتلون وانما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

أيها الناس ان هذا يوم له ما بعده أما من حي منكم فانه يصفو له ملكه وقراره وأما من مات منكم فاحيا الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يكرهن اليكم الموت أمرؤ قد اقترفه أحدكم دون الشرك تتوبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فاني أشهد وليس أوان الكذب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة

وكأنما كان في الناس عقل [1] فانشطت فخرج بهم وحالد على الميمنة وعياض على الميسرة وأبو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ونشب القتال فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلا في مائة وانهزم أهل قنسرين بالروم فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة وطهر من بقطة المسلمين واستعدادهم واهتمام أمير المؤمنين بهم في هذه الحادثة ما رأيت مما لا يظن بقوم مثلهم حديث عهد بالبداوة . ولما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم وقال

لا تتكلوا [1] ولا ترهدا في الدرجات فلو علمت انه بقي مما أحدثكم بهذا الحديث .

وتوافى اليه آخر أهل الكوفة في ثلاث يوم من يوم الوقعة وكتب المسلمون الى عمر وهو بالجابية بالفتح وتقدم أهل الكوفة بعد لانه وطلوعه منه حكم

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) هو في القاموس كتب كتب وحبس

فى ذلك فكتب اليهم ان اشركوهم وقال: جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار

﴿ ما كل حديث تحدث به العامة ﴾

(وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس)

كل مسلم اكتنه كنه الدين الاسلامي ووقف على حكمه واسراره يرى من آياته العظمى فى الترغيب والترهيب مالو أحسن استعماله ووضع فى موضعه لكفي لارعاح النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وامعنت فيها ولجعل النفوس البارة نوراً على نور وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثا للنفوس على العمل الصالح رجاء الثواب الاخروي الذى أعده الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس فى مدارج الاستباحة طمعاً فى عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون لها منهاداع الى الخير يذكرها بالثواب ويمكن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وراحر عن الشر يذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتعطيل وظائف الحياة ولا الى حد اليأس والقنوط ثم الاسترسال في الشهوات واقتراف المنكرات[1] على ذلك الاساس بني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ماجاء منه في الحديث النبوي فالمراد منه عين ما أراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد أولع كثير من علماء المسلمين بالافراط فى الوعظ ترغيباً وترهيباً وحملوا عامة الناس على طريقتهم فى

(١) لما بهذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (نسمة الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فليرجع اليه من أحب

فهم الدين فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده ووضع كل شئ منه فى محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغروا العامة بعقيدة الاباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والايام وفضائل التلاوات وجلها ان لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تمثل بيوم كذا محيت سيئاته الى كذا ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد البوية من الفضائل مالم يجعلوه للقرآن فقالوا ان البيت الفلاني منها لشفاء الاسقام والآخر لمحو الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري اذا اعتقد العامي أن تلاوة بيت من قصيد يكفي لمحو كل ما يقترفه فى يومه من الآثام فالى أية درجة ينتهي فساد أخلاقه وشرور نفسه وماذا يفعله القرآن بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وحكمه وأحكامه

اللهم ان هذا لغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الاسلام ومنشؤه اضطراب الافهام وتلبس الحقائق بالاوهام منذ حدث الوضاعون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا فى الدين ما ليس منه يضاف اليه الاكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له فى موضعه الى أردها الشارع وقصدها الاسلام ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم وكيف أنهم كانوا يقلون من رواية الحديث الا للحاجة وما تعلق منه بالاحكام حتى ان عمر رضي الله عنه كان ينهى عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما سيرى بعد وما ذلك الا خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكثرت

الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه فى الدين والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الامة وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة أو سمعه بعض الخاصة فرأى هذا الامين أن يطوى هذا الحديث بين الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان عقول العامة يلابسها الاغترار ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم بالوعيد أولى وبالرامهم ظواهر الشرع أحرى ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين فى حمص ورأى منهم فتوراً عن الحرب لا لوَهن فى نفوسهم أو حس أصابهم كلا وانما هو لرهبة الخالق الى تمكنت من افئدتهم وقلوبهم وأحاقتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده قام فخطب فيهم وتلى عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم وتحميماً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك اذا تابوا وأنابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لا يتعدى اسماعهم لاعتقاده انهم اذا خرجوا لمكافحة الروم لا يبقى منهم أحد يحدث به أو يلابس نفسه أثر منه لكثرة من كان على حصارهم من حد الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونحوا من براثن العدو ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشى من ان تعلق فى نفوسهم شىء منه مع أنه علمه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

(لا تتكلوا ولا ترهدوا فى الدرجات فلو علمت انه يبقى مما أحدثم أحد بكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوما بلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأحاص في اليقين من حاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث فليت شعري كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط في المحدثين وحملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والفقه في الحديث والعلم بحاله المحاطبين واجتناب العلوم معهم في الترغيب والترهيب ومراعاة مايلائس عقولهم من القوة والضعف وأنى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا نهى في عصره الذي هو خير العصور عن الاكثار من رواية الحديث فما ظنك بما يلي عصره من العصور

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر الفرطبي الاندلسي في كتابه جامع بيان العلم [1] وفضله في باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر في خروجه وصلى فغسل أثرنا ثم قال أتدرون لم مشيت معكم قلنا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا فقال كم تأتون هل فيكم دويبة يقال لها كذا

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الازهر

النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم . جوّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اه

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه قول عمر انما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشي عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك ثم قال بعد ذلك أيضاً : ان نهيه عن الاكثار وأمره بالاقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً أن يكونوا مع الاكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه لان ضبط من قلّت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الاكثار فلهذا أمرهم عمر من الاقلال من الرواية اه

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد في فتوح الشام غير القائد العام الذي كان خالد بن الوليد وبعده أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبي سفيان وأخوه معاوية وحبيب بن مَسْلَمة الفهري وعياض بن غَنْم الفهري وشُرَحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش الا الاخير فانه حليف بني زهرة من قريش وأما غير هؤلاء ممن ليس من قريش فهم ذو الكلاع الحميري والقعقاع ابن عمرو[1] والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مُحرِز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعي ومسروق بن فلان العكيّ

(١) القعقاع وعياض هما من حد العراق لا الشام ووفدا مع خالد بن الوليد أيام تحيثه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكيه وقبل قتلها الى العراق

وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش وإلمامهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو ما يدل على علو كعبهم في فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء في كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر الى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلة في هذا أن القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان كجزء طبيعي منها عرف العرب طرقه وبلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف اليه أن قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مصر وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد الى أجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد الى سورية أكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوي علاقة تجارية بسكانها

﴿ خلاصة جغرافية ﴾

(ونظرة اجتماعية)

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن نأتي على خلاصة جغرافية للبلاد السورية نضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديما وحديثا مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وحدوده كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسعه المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا الفرات

والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني اسرائيل وغرباً بحر الروم أي البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين[1] والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسماً عظيماً منه وعزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والمادين والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ ق م الى سنة (٦٣٣ م) حيث ابتدأ الفتح الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو (١٧ هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان عهد الرومانيين مقسوماً الى ثلاثة أقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة أقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون الرشيد العواصم وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هذا القسم

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم انتقلوا صورا حوالى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التي يقال انها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط وباعمالهم فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم وتشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا هذا العهد

حمص والقسم الثانى دمشق والقسم الثالث الأردن وحاضرته مدينة الاردن (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً وسيأتى الكلام على هذا بالتفصيل فى غير هذا المحل ان شاء الله

وقد توفرت فى هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا أن هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة فى هذا القطر ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقى الدول وقد كانت دوله الروماان الشرقية على عهد الفتح الاسلامى دوله لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالكها آثار التمدن الرومانى العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الدينى والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية وفرق جامعتهم الملية ولما تولى الامبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المحادلات الدينية فى أشده فخاص الامبراطور نفسه فى عماره واشتغل بالامور الدينية تاركا أمور الدوله السياسية لوزرائه وأرباب دولته ومن ثم ظهر الوهن فى الدوله فى أتم مظاهره فغزتها دوله الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيما وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد الامبراطور هرقل يرايل بكرسيه الامبراطورى القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة عاصمة له لولم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية حتى يمص مرة ثانية بحبان ثابت لمحاربة الفرس واستردهم ما انتزعوه من ممالكه كما تقدمت الاشارة اليه فيما مر من هذا الكتاب

ولا ريب في أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ونكبت كما نكبت تلك الممالك المرض بسوء السياسة والضعف

والانقسام لاسيما وانها كانت حديثة عهد بمعارك الفرس التي لم يكن مضى عليها حين الفتح الا بضع عشرة سنة. إذن فهذه البلاد لم تكن لمادوّخها المسلمون راقية مراقي العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان إلاّ ان استعدادها الطبيعي لقبول العمران وما فيها من بقايا المدنية العابرة تكمل برقيّ أهلها في مراقي السعادة مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هذه البلاد من الرقيّ على عهد الخلفاء الراشدين والامويين في صدر الاسلام لِمَا أن أخبار تلك العصور انتهب الينا بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنياً به في ذلك العصر إلا ان هناك من الادلة والاسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقي في أصول المكاسب الثلاثة الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ومتى تنظمت أصول الحماية ورفع عن الرعية العسف وخفت المظالم وأطلق للاهلين عنان الحرية توفرت لهم أسباب الراحة ونشطوا من عقال الخمول وهبوا للاخذ بأسباب المكاسب وتبسطوا في مناحي العمران وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان البلاد كانوا يصالحون على مقدار معين من الحرية والخراج لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين والامويين وصدراً من خلافة العباسيين وان سنة محافظة الخلفاء على العهود الى أيدي السكان ويضاف اليه تجنب تلك الدول لأسباب السَّرَف لقرب عهدها بالبداوة وجدتها في تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسف في

الجباية والاكثار من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة فى عهد الامويين على ترقى العمران فى البلاد هي ما يأتي نقلا عن فتوح البلدان

دينار	
١٨٠٠٠٠	الاردُن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهى حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعهم)
١٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشئ بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد فى عصور تقهقرها أكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها فى العمران وفقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها أكثر من جبايتها فى صدر الاسلام كما سترى

وهذا دليل على تناهى الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم فى الرعية يضاف اليه أيضاً حلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتعمير الامصار وتأسيس الملاحئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبل والمنقطعين وترتيبها فى الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتأسيس معاوية مدينة طرابلس الشام وتعمير سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاحئ للزمنى والمخدمين وأمره بناء لصدقات للمسافرين فيما بين الاقصر المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وتشييد اصلاح الطرق للسابلة وحمل التجار وإطلاق الخلفاء لحرية المعتقدين لطوائف الوضيعة من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ودواعي الرقي والعمران يدلنا على رقي البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين أيضاً وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران الى لم يتمتع بها هذا القطر في عهد غير دولة المسلمين الا قليلا على عهد الفينيقيين أيام مجدهم والرومانيين أيام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها تداول هذا القطر السوري عدة من الدول كالفاطميين والاتراك والاكراد والجراكسة أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار الاسلامية اذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب واستمرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة جيلين كاملين والله أعلم بما أصاب في غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة وتخريبهم للمدن والامصار وقتلهم في البلاد وأهلها الاهوال الكبار وتلى ذلك هجوم تمورلنك عليها في أواخر القرن الثامن بعد اكتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وقتل في سورية الافاعيل وأحلى عن دمشق خاصة أهل العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند

على ان موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها دماء الحياة وأعان أهلها على تحمل المصائب فلم تحط الى الدرجة التي تفقد معها أصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع العربية أيضا اذ كان هذا الطريق قبل فتح

ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق

وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف يدلنا على هذا ما بقي منها وما لم يبق أيضاً لوجود أثره الدي ينبيء عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الاقمشة الحريرية والقطنية كأقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو النزلية والالاجا والحامدية وغيرها وكاقمشة الزينة كالستاير والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديما بالدامسقو إلى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحرمة كل هذا باق الى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الالوان وتناسب النقش وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماه وحمص ودمشق وطرابلس والدور (من لبنان) وغيرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمصص) وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقت الآن فتعدت الصدف الى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظهر الناظر اليها الا منقوشة بالدهان لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه أن النقوش تماهي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل الى الآن في حلب ودمشق ونابلس وغيرها

وصناعة النشا في دمشق معامل كثيرة لها تسمى القلعات لتزل لهذ العهد تصنع كميات عظيمة من النشا الا انه قل تصديره الى الخارج بسبب زحمة

النشا الافرنجى له في البلاد التى كان يصدر اليها كمصر وغيرها

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا أنها ساذجة لم تترق الا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهى الجلود التى تصنع في زحلة الجلود التى تصنع فى معامل أوربا

وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاً نائتة أو مجوفة وهى صناعة قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثار الحجرية الباقية الى الآن والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وميلها للعمران فالبناء فى عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول فى سورية كان ظاهر الفخامة عظيم الضخامة متقن النقش والترتيب كهيكل بعلبك الذي بلغ الغاية في إتقان البناء والتصوير الباتئ على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاً على أننا لم نرَ أثراً يشبههما الا واحر الدولة الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون فى العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية من اتقان البناء وكان أجمل رواء منه فى عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده منها فى بعض المساجد التى بنيت على عهد الملوك الحراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت فى القرون المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد وقد بنى فى العام الماضي محراب للجامع الأموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها واتقان صنعها وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذى أُقيم فى جانبه وعلى نمطه أيضاً

وصناعة الزجاج وهى اليوم متدنية جداً لا تتعدى صنع القوارير الساذجة

ومعاملها وجودة في دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنّب وهي مترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع الدرة في بيروت وحماة

وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً ناتئة ومحفورة وكانت فقدت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الاوربيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهي الآن مترقية في معظم المدن السورية

وصناعة أدوات الخيل وهي الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة لهميانات والصناديق الجلد وغيرها وهذه الصنائع باقية الى الآن في سورية وتوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصنائع التي اندثرت وإنما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل وحمامات والجوامع يدل على ترقي هذه الصناعة في العصور المتأخرة ترقياً عظيماً خصوصاً في القرن التاسع والعاشر الى الثاني عشر وفي جامع الشيخ محي الدين العربي في الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني في أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية في الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود في جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود في جامع السليمية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد اندثرت هذه الصناعة في القرن الماضي لانحصارها في عائلة واحدة ضنّ آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسوء معاملة ومات فذهب معه والخبر عن هذا الامر مستفيض لي اليوم عند دمشقيين والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها الى قيشان محرفة عن كاشان المدينة في فارس

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً في أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية في القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وانما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقي خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأراحه من بضع عشر سنة فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الاثرية الفرنساوية في مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة في عهد الفاطميين والخراكسة [1] وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صدق لبي الماني وعليها اسم العامل بالعربية إلا أني لم أعثر في القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شيء من هذا القبيل ربما أعود لذكره في مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة الفسيفساء وهي قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجص على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الانهار والاشجار والابنية الجميلة وهي من أنفس الصنائع التي وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل ان الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الاموي بدمشق استجلبها من القسطنطينية ورصف جدرانه كلها بالفسيفساء على أشكال شتى تمثل الجامع والاشجار والانهار ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفساء إلا قليلاً منها في الحائط المقابل للمحراب في الحرم الداخلي والحائط الغربي والشمالي في الحرم الخارجي فأتم ما كان منها على الحائط الداخلي وقد تأثر بعضه في الحريق الذي حدث منذ بضع سنين وأتم ما كان

(١) راجع مذكرات البعثة الاثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية في عدة مجلدات

منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفوليتي وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيفساء إما عمداً عن جهل بقيمته الأثرية وإما اضطراراً فكان يجمعه الاولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح . والظاهر أن صناعة الفسيفساء استمرت في الشام الى ما بعد القرن السابع بدليل ما يشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق إلا أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لمثلها في الجامع الاموي وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيفساء يومئذ انحطاطاً انتهى الى تركها نهائياً

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه الى سمرقند على أنه لم تزل الى هذا العهد صناعة الاسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن سوريه الا أنها محطة عن مرتبتها الاولى

وصناعة الاثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكان لها شهرة بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار مذ كثر توارد البضائع الافرنجية الى من نوعها الى سورية وكان من يصنع منها شيخ في صالحية دمشق ومن أرباب هذه الصناعة ضاع في السن عدد كبير من الكرعتيا يقولون إن الصالحية منذ أربعين سنة فصاعداً كانت مشتملة لها كلها أشبه بمعمل وحديقوك أهله تلك الاثواب البيض من القطن المغزول بالشام وان أهل الصالحية جميعهم كانوا في نعمة وعيش رائد من ثمرات هذه الصناعة فأصبحوا الآن في ضنك وعسر لفقدهم أو لعدم الحاجة اليها

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك في سوق دمشق وكل سوق منها لأرباب

صناعة مخصوصة كسوق الشماعين والبادرن الملاصقة (١) وسوق السلاح والعلبية وسوق المرايا والقيارين وغير ذلك من الاسواق التي تبيع صنائع أهلها إلا رسم دارين وعهد طامس الم الا الذلة والخراطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغنا البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم

ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعرق عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن يقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجص الناقش على أشكال بديعة ويذهب بعضها ويعضها يلون بألوان غير زاهية وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجلها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لا مما ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ومنها ما هو موجود في منزل أسعد باشا العظم الذي يقصده السياح للفرجة وفي منزل عبد الله باشا ومنزل المرادي ومنها ما مضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذي فيه زاهيا جميلا كأنما صنع بالامس .

والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التي لم يمض عليها الى اليوم أكثر من ستين سنة وإنما أهملت في السنين المتأخرة لكثرة ما تحتاج اليه من النفقات التي لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذي ألم بالبلاد بعد ما انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذي طرأ عليه الى بعض الدهانين الطاعنين في السن الذين يعلمون شيئا من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان

(١) صناع العلايين التي يستعمل بها الجص

الزاهية فالمناصل المتينة إلا أنها جاءت عراة والبارود لا عيب فيه

هذا ما زاد فاسطه عن حالة سوريا الصناعية والاجتماعية وفي لنا كلام عن حالتها الحديثة العلمية من حيث الترقي أو الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف أو في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب أهل مدنها فيها وعدد نفوسها والشركات الحديثة التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وبما أنها تابعة في هذا كله الى المملكة العثمانية فقد أرجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونتكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها الى طرق الخير ويسرع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولي على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقي فيهم دماء من الحياة وأثر من الشعور فباتوا يتقلبون على مصاحع الآلام وتساورهم الهموم الحسام ولا سبيل لهم الى إصلاح الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذا نصحوا رموا بالخيانة واذا صدعوا خرجوا في عرف الجهلاء من عهدة الامانة وهي حالة يا رباه تؤدي بتسفل الاخلاق وضعف العقول وموت الوجدان فأنقذنا اللهم بفضلك منها وارشدنا للتبرئ من عارها الذي جعلنا عبرة في الآخرين وألعوبة في أيدي العربيين انك مجيب الدعاء

باب

فتح العراق وفارس

(إنتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الأمرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق. وأما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني الذي حلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ما دام والمختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهريراز الذي أدى موته الى تملك سابور ثم قتله وقيام آرزميدخت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسمه إجابة طلب المثنى لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبيحة اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه الى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم قبلها كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تحجمنا ريف فارس وعلباءهم على خير شقي السواد (يعني الشق العربي الذي هو العراق العربي) وشاطرناهم وبلنا منهم واحترأمن قبلنا عليهم ولهما إن شاء الله ما بعدها اهـ

وقام عمر (رض) في الناس فقال

لا للمحاربين لكم مدارا إلا على الجزية (١) ولا قوى عليه أهله إلا بذلك أن العرب المهاجرون عن موعود الله ورواق الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن ورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهره وناصره ومولي أهله مواريث الأمم فأين عباد الله الصالحون إلم

فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وحي سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمر عليهم رجلا من المهاجرين والانصار فأبى وقال إنما من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة ثم أمر أبا عبيد على الجيش وقال له : إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف (٢) ولم يمنعني أن أؤمر سليطا إلا سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضياع إلا عن بيان والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى أوائل جمادي الثانية سنة (١٣ هـ) ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أحو بني عدي بن النجار والمثنى بن حارثة الشيباني فتقدمهم المثنى الى الحيرة وكان استقر أمر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وحملت اليه جباية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم الى دهاقين السواد أن يثوروا ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وبعث جندا لمصادمة المثنى وبلغ المثنى ذلك فضم اليه مسالحه واجتمع اليه المسلمون فسارهم الى جلاء وبرلها حتى قدم أبو عبيد وكان أول من سار من الدهاقين حالان في مراث

---

(١) الجمعه طلب الكلأ (أي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأني الذي يعرف ساعة العمل ويعمل وساعة الكف فيكف

باذقلى فسار اليه أبو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس

﴿ موعظة ﴾

لما انهزم الفرس أسر حابان أسره مَطَر بن فضة التيمي فخدعه حابان بأن وعده بشيء يعطيه له فأمنه وخلى عنه فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه انه الملك وأشاروا عليه بقتله فقال اني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقدلزم كلهم فقالوا له انه الملك وانه هو الذي حاربنا قال وان كان لا أغدر فتركه

أنظر رحمك الله الى هذا الامير العظيم النفس الصادق الايمان الذي ملك ناصية عدوّه الذي غدر بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد وقاتلهم سكران الجميل وخرق العهد فأبى أن يقتله لعهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتوادي يومئذ أن أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فأين تلك النفوس البارة والاحاء المتوثق والوحدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الاخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوّة حتى باتوا ألبا على بعضهم وحربا على أنفسهم يمزقهم الاعداء ويتغلب عليهم الفاتحون وأمراؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أدى بعض ويتمنى أحدهم زوال ملك أخيه ابرادا باسم الرياسة وطاعة لهوى النفس الشريرة وما يتمنون في الحقيقة الا زوال ملك الاسلام وما يطيعون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوّح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت أسباب الاخاء وانحطت أخلاق الامراء وتفشى الجهل في قصور العلماء وتوسدت أصول الدين وعلت الشهوات وتغلب علينا الأمم وحسبنا ما نحن فيه من حوزائك العادل ما لقيناه من جور أمرائنا وتحكم أعدائنا

فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما أمرت فنوثق عرى الاحاء وننبذ من كانوا سبب القاطع والشحناء ونجدد عهد التالف ونتمسك باسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيم قائد اسمه نرسي من الأسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجيء الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم فما حلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقاطية فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب على عسكره وأرضه وأقام أبو عبيد وسرّح القوّاد لاستحصاع من حوله من أهل السواد فجاء فروخ وفرّوَنداد المثنى بن حارثة وطلبا منه الحراء والذمة عن عن بارو سما ونهر حوبر فأبلغهما أباعبيد فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفروند دعاه الى آنية فيها انواع أطعمة فارس من الالوان والاحبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك قال أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله قالوا لم يتيسر ونحن فاعلون فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فردّوه وخرج حتى نزل بارو سما فأتاه الابذرزعر بمثل ما جاءه به فروخ وفروداد فقال لهم أكرمتم الجند مثله وقريتموهم قالوا لا فردّه وقال لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد لو صحب قوماً من بلادهم لعرفوا قدره فيهم ولم يجرّيهم عليه بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مما يأكل أوساطهم

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يفعلون ويمثل هذه الاخلاق يمتازون ويحبب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون ويمثل هذه الخصال الجميلة يسودون لا بالاستئثار بفيء المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا باستلاب مال البلاد التي أحررها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم

وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نشأت الاسلام في أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يحبط للوصول اليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وعلوهم فيه غلو الجاهل بحوافيه اذ فاتهم أن البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر وأن الانسان اذا أفسدت الحضارة بخيرها وأخذ حب الشح بمجامع قلبه استحال تقويم أوده نفسه وإرجاعه عن غلوائه والاقلال من أثره وكبريائه والاخذ على أيدي فاحشته وزعمائه مالم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامة وحلماؤها في صدر الاسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الاثرة بالغنى والجاه والفحشة الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيد (رض) وبلغ عمر بن الخطاب (رض) بنفسه بغضاء حب الاثرة وكرهه لاكتناز البعض للمال دون البعض الآخر أن كان يحصي مال عماله قبل أن يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن مقتناهم من المال قبل الامارة ويصادرهم عليه ثم يرده على المسلمين وبلغ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته أن عاملا من عماله أسرف في جمع المال ومال الى النعم وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتاباً طويلا مما جاء فيه قوله

أيها الممدود كان عند ما من ذوي الألباب كيف تسيغ شراباً وطعاما وأنت

تعلم انك تأكل وتشرب حراما وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الاموال وأحرزبهم هذه البلاد. فاتق الله وارددالى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن الى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذى ماضربت به أحداً الاّ دخل النار الخ

فأين هذا الخليفة فى مشربه القويم ومذهبه المستقيم فى تأديب العمال بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السَرَف فى أموال العباد ممن يربّي عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم فى أموال الناس بل ويحكّمهم فى رقاب الرعية ويدنى فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن فئة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقلبهم الخوع للشهوات ان هذا لا يتيسر الآن الا اذا صبغ أديم الارض بصبغ الانسان وتبدّل الاشرار بالاحيار وذلك أمر بعيد

عود الى خبر أبي عبيد

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدّم المثنّى في تعبيته حتى قدم الحيرة وكان الجاليوس رجع الى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقاتلة المسلمين فوجّههم من حاذويه ورد الجاليوس معه فاقبل بهمن حاذويه ومعه راية كسرى (درفش كابيان) وكانت من جلود النمر (١) وأقبل أبو عبيد حتى نزل بمنزحة على

---

(١) هذه الراية قصة عجيبة فى أخبار فارس ومحصل أن جاماسب وزير قباد حارب على رعيته وسيرسات حكومته فى العراق الى حد لا يطاق فتمرد عليه ومرجانة حداد حامل بين يديه عصيهم في حسبة خرج من حانوته ورفع على عصا صوفه حمراء الذى يربطه احداب عادة وسطه وسعى فى الناس من لا يزال يجتمع عليه حتى صار في قدمه عامة الناس فقتلوا جاماسب الملك وجنوده وسمّوا ذلك الجلد درفش كابيان=

ضفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه بهمن جاذويه إما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فأبى قبول اشارتهم وترك الرأي وقال لا يكونوا أحرأ على الموت منا وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم ير مثلها المسلمون

وهذا وان يكن اقدام من أبي عبيد رضي الله عنه وشمم وشجاعة لا يصدران عن غيره الا انه خطأ وقع فيه لامر يريده الله وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قتل أبو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضربه فحطمه الفيل وكانت أسرعت السيوف في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة فلما حط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جوله ثم انهزموا وركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ولما رأى المثنى من حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادر هو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم فأقاموا المروحة والمثنى حريح وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذي نصح أبا عبيد على عدم العبور وبقي المثنى في جمع قليل . ولما انتهى الخبر الى عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر وبلغه ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب وقال عباد الله اللهم ان كل مسلم في حلٍّ مني فأيما كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عرفا عصم بالخيف أو تحير اليا ولم يستقل لكنّاله فئة

واذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى في الكتاب

= فاجتمعوا وكما راية حتى اذا شعا ألهم ثم حملوا من جلود البقر وسموها درفش كاويان وكانوا لا يخرجونها الا حين الحاجة تقصوى

الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره الآ متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون والانصار جزعا شديدا فلما رأى عمر رضى الله عنه جزعهم قال . لا تجزعوا يا معشر المسلمين انا فئتكم انما انحزتم الي ولغ الجزع بمعاذ القارئ احد بني النجار أن كان اذا قرأ هذه الاية بكى فيقول له عمر . لا تبك يا معاذ انا فئتك وانما انحزت الي : وذلك تحقيقا لروعه ودفعا لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أحوطها من الله وأشدها تمسكا بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ورضى عن عمر بن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانية ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمثنى ومن بقى معه من الجند القليل جاء الفرس ما شغلهم عن المسير اد وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الميران فسمكن المثنى من جمع القبائل التى حوله وأمده عمر (رض) بجرير بن عبد الله البجلى وقد كان قومه أوراعا متفرقين فى قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بنى عبد ابن الحارث الضبى فيمن تبعه من بنى ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم أحد الا رمى به المثنى وكان ممن قدم على عمر رضى الله عنه سويد بن قطبة وصلوا أن يوجهوا الى الشام فقال لهم ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق وستقلون جهاد قوم قد حوزوا دونكم العيش لعل الله أن يورثكم بعضكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس فقام عاصم بن فلان النبيتى وعرفجة البارقى وقال كل واحد منهما لقومه ما عتيرتاه أحيوا أمير المؤمنين فى مايرى وعجلوا له فأجابوا وذلك قد لهم عمر بخير وأمر على بنى كل واحد عاصم بن عبد الله وعلى الأزد عرفجة بن هرثمة

وسرّحهم فخرج هذا فى قومه وهذا فى قومه حتى قدما على المثنى

وقدم على عمر (رض) هلال بن علّفة التيمى فيمن اجتمع اليه من الرباب فوجهه وقدم عليه المثنى الخُشَمي جُشَم سعد فأمره على بنى سعد وسرحه وجاء اليه رِبْعِيّ فى اناس من بنى حنظلة فأمّره عليهم وخرجوا حتى قدمُوا بهم على المثنى بن حارثة فرأس بعده ابنه شبَث بن ربعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم الى المثنى

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى ابن حارثة جمعوا كلمتهم وجاء الفيرزان ورستم الى بوران وأخبراها انهما اتفقا على أن يرسلا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واسأذناها بذلك ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده فى محل يدعى البويب على شاطئ الفرات لا حر وكانت الجنود اليه مواصلة وجاءه أنس بن هلال النمرى ممدّا فى أناس من نصارى النمر وقدم عبد الله بن كليب التغلبى المعروف بمردى العمد فى أناس من نصارى تغلب فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا الى جند المسلمين ولله ما تفعل الحامية القومية فى النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثنى إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا الينا فعبروا اليهم وجاءوهم من قبل نهر يسمى سليم فى صفوف ثلاثة ولهم صوصاء ورحل فقال المثنى للمسلمين ان الدبى تسمعون فتسلّحوا والزموا الصمت ثم تقدم اليهم المثنى وعلى مجنّبتيه بشير ونَسر ابنى زُهير وعلى محرّدته المعنّى وعلى الرحل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النَسير وعلى الردء مدعور وكان على مجنبتى مهران الآزاذبه مهربان الحيره ومرزبان شاهم

خرج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضّضهم[1] ويأمرهم بأمره ويزيّنهم بأحسن مافيهم تحضيضاً لهم ولكلّهم يقول انى لأرجو أن لاتؤتى العرب اليوم من قِبَلكم والله مايسرنى اليوم لعمى شيء الا وهو يسرنى لعامتكم فيحيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لاسيما وانه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقيبة فكان المسلمون يحبونه ويحبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد

ثم ان المثنى كبّر وكبر المسلمون وكان واعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة فحاملهم الفرس من الأولى وحاطوهم والتحم القتال وحمل المثنى كلما رأى حملا فى صف من صفوفه يرسل لاهل الصف رجلا يقول ان الامير يقرأكم السلام ويقول لاتفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويستبدلون ويناطح القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه انس بن هلال ومِرْدَى الفهرى وقصد المثنى مهران فأراد حمى دخل فى ميمنته واصطربت صفوف الاعاجم ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران وقتله ثم استوى على فرسه وتصعصع الفرس فانهزموا وبادرهم المثنى الى الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعّدين ومصوّبين والسيوف تأخذهم من كل جانب وكان ذلك بحسن قياده ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذي أظهر من البراعة والشجاعة فى هذه الوقعة مايخلد له طيب الذكر الا أنه أظهر ومثّل بدنه على أحد بالجسر وقال لقد عجزت مجرة وقى بلة شرها تسعة يأهل الجسر وقطعه حتى أحرجهم فانى غير عائد الى لمثل هذا الخطأ) لاتعودوا ولاتفتدوا يا ايها الناس فانما كانت مجزرة لايبقى جريح حتى لأمر

(١) حضّضهم كحضّهم وزنا ومعنى كما فى القاموس

لا يقوى على امتناع . هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وثابته للحق رضى الله عنه

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا حرحوا فى هذه الوقعة ناس منهم خالد ابن هلال ومسعود بن حارثة اخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال والله انه ليهوّن علىّ وجدى (أي اسفه وحزنه) أن شهدوا البويب . اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا . وأن كان فى الشهادة كفارة لتجوّز الذنوب

وكان اشد الناس بلاء فى هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع ابى عبيد لاستحيائهم من الفرار فى تلك الوقعة ولما انهزم الفرس فى البويب انتدب المثنى حرير بن عبد الله البجلى لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهد واقعة الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبرى ان المثنى وعصمة وحريرا أصابوا فى أيام البويب غنما ودقيقا وتمرا فبعثوا بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد حلوهن بالقوادس والى عيالات أهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن قُيَيْلة فلما رُفعوا (أي طرحوا) للنسوة فرأين الخيل تصايح وحسبها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمُد فقال عمرو انتهاجاً لهن هكذا يلبغى لنساء هذا الجيش وبشّروهن بالفتح وكان على الخيل التى اتتهم بالنُّزُل (الضيافة) السُّسَيْر فأقام فى خيله حامية لهم

ولا حرم فلو لم تكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهن وامكان دفعهن العدو والمعاجز لما تركوهن فى العلاء بلا حامية وتقدموا لهم لحرب الفرس وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات فى اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن فى القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضنهن

ذكر الطبري في معرض كلامه على فتح ميسان انّ المغيرة سار الى أهل ميسان وخلّف الاثقال فلقي المدوّ دون دجلة فقالت أزدة بنت الحارث بن كَلَدة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنّا معهم (أيّ عوناً لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خُمُرهنّ رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلمّا رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا انّ مدداً أتى المسلمين فانهزموا وأتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمري غاية في الجراءة ونهاية في الاقدام وحق لمثلهن أن يدخلن في مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب أدورد جون في تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أيّ انسان يريدهما بسوء

ولقد صدق فيما قال والاّ فما كان لرجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال في معامع الحرب والقتال ومن البديهي أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ولكن كان لهن من لاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يصيانهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الاسلام سوغ للقائلين بتخفيف الحجاب في هذا العصر أن يطلبوا شيئاً من وراء ذلك بل يجب أن يبقى الحجاب على ما هو عليه ويعطوهن حقوق الرجال والاّ فالكلام عبث لا يجدي والموضوع خروج يعني بخروج عامة

وبصيرة والله أعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثنى ﴾

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده فى السواد وأخذ يستحضع البلاد التى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظهر بها المسلمون بما شاؤا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالاً الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دوله الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أصر على الامم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب المالك وتشعث بناء الدوله وقلّ ما انتهت الدول فى أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتعلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الافراد الا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها وقد كانت دوله الفرس أصيبت فى أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابروير فى أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجالا على استخلاص بواقى الخراج فعسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحولت انظارهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان أقصى أولاده الى نابل وممن هم من النصرف فاغتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فأحصروا من نابل ولده شيرويه وأغروا والده على التنازل اليه عن الملك ثم أغروا ابنه على قتله فقتله ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته وأحس بضعف نفسه أصابه وسواس أفضى الى ان أمر بقتل اخوته وكانوا سبعة عشر أخاً ذوى مشورة وعلم وأدب وأنبه أختاه بوران وازرميدخت على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه فملك الفرس عليهم ابنه اردشير وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين الى الرياسة من أرباب الدوله واسمه بهادر جسس فحسده قائد خنود الثغور وامتعض من عدم استشارته في تولية اردشير فاتخذ ذلك ذريعة الى التعنت وبسط يد القوة وطمع فى الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الاكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل اردشير فتولى الملك بعده شهريرار وهو من غير بيت الملك ولم يمكث فى الملك الا أربعين يوماً وقتله أشياع اردشير فملكت بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشنشبنده فانكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت اررميدخت وحطها والى خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده الى المدائن فتمكن من اررميدخت وسمل عينيها ثم قتلها وأقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الميرران أحد عظماء الدوله وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى فى الملك وظهر الخلل والضعف على الدوله ولما اشتغل المسلمون بفتح العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الاسلام للوثوب على عرش الاكاسرة دب فى عامة الشعب الفارسى تدبير الشعور بحرج الموقف لدي وقعت فيه دولتهم وأحسوا بالخطر الذى حفره عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق فأهمل رجالهم وذوو الرأى منهم فى الميرران ورسموا لهما خطة يسيران عليها فى الحرب بكل الاحتياط حتى هيئوا لفارس وأصبحت أمام عدوها الذى يتربص بها خطر كما ان فرسان فارس على هذا النحو من الاستعداد يمكنهم بعد ذلك من التوسط وتكرت الايام لتعود للمسلمين الى حيث المسلمون هم فئة تجمعهم

لبداءتكم أول مرة فاستحوذ عليكم فتنكصون على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين
الرؤساء لقد قتم بين أهل فارس وبطشتم بهم بأس عدوهم ولولا ذلك
هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم
لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا
هلاكهما فجامع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه
كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار في اصطخر وقد كانت أمه غيبته هناك
وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاؤا به وملكوه وهو ابن احدى وعشرين سنة
الا أنه كان ضعيف الرأي والقلب ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء
شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وتساروا في
معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد
لقتال المسلمين

﴿ استعداد مثنى ﴾

(ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق)

لما بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهزهم لحرب المسلمين
كتب الى عمر (رض) وبإياهو بانتظار الجواب كمر أهل السواد بالعهد ونقضوا
ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذي قار
حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه . (أما بعد فاخرجوا من بين طهري الاعاجم
وتفرقوا في المياه الى تلى الاعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة
أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النحدات ولا فارساً الا أجلبتموه
فان جاء طائعاً والا حشرتموه . احملوا العرب على الحد اذا حد العجم فلتلقوا
حدهم بحدكم)

فلما وصل الكتاب اهتم الشيء بأمر عمر وأحسن الرأي الحرقي والنعمان فنزل بذي قار ووقف الجند على خط واحد من إيال وشراف الى قصى (١) حيال البصرى فكانوا إذا أتوا العراق من أولها الى آخرها مسالح (٢) بعضهم ينظر الى بعض وينيخ بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من حيال البصرة الى شراف والجل أى من أول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر في فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا الجنود ثغورهم وباتوا حائفين هائبين والمسلمون متحمسون وهم كالاسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى وخرج عمر في أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صراراً والناس لا يعلمون شيئاً مما يريدون وكانوا اذا أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدروا على علم شيء مما يريدون ثنّوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس فقال العامة سِرْ وسِرْ بنا معك فقال استعدّوا وأعدّوا فانى سائر الا أن يحيء رأي هو أمثل من ذلك ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه

---

(١) فى معجم البلدان حلّ موضع بالبادية على احادة طريق القادسية الى زبالة بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلا وهو بينها وبين الرمّاحيين وشراف بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وعصيّ تصغير العصماء لعامر بن ربيعة وقيل حيال البصرة (٢) جماعة المسلحين وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع

وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احصروني الرأي فاني سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان لذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والا أعاد رجلاً آخر وندب جنداً آخر حتى يحيء نصر الله

﴿ الحكم النيابي في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة والرأي مناط الظفر بدوله هي أعظم دول الارض رهبةً لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الاسلام على صروح الممالك والا كان الخطر على المسلمين عظيما والامر جللا بعد اذ هيجوا أمر فارس والروم واحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأى من السداد أن لا يفوته رأي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأميرهم أرغب ولخليفتهم أطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص وكان تخلف عن الجمع علي وطلحة رضي الله عنهما لان الأول استخلفه عمر على المدينة والثاني كان على مقدمة الجيش فرأى أن لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال

أما بعد فان الله عز وجل قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا وأمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الامر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . يا أيها الناس انى انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت) ويعني بمن خلف علياً وطلحة لانهما لم يحضرا لرأي الأول كما ذكرنا

لعمرك أي ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضى واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا الامر فانه تبع لذوى الرأي منهم) فجعل نفسه تبعاً لذوي الرأي وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأي وهذا هو الحكم النيابي الذى تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم الا بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وأمرائهم القاهرين وقد وضع أساسه لاسلام وبدأ به أبو بكر وعمر رضى الله عنهما اخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما يصلحهم في أمر دنياهم الا ان هذا الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء واخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقى الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمن لهذا لم يستمر الا باستمرار دولة الخلفاء الراشدين مع ان حاله القوم البدوية وميلهم الفطري للحرية يقتضيان استمرار الحكم النيابي في الدول العربية وبما أرغم القوم على مخالفة الفطرة البدوية فدامت دولة بني مروان في وسط الممالك الاعجمية وحائط حدائقها الاعاجم من الفرس والروم ورأوا ملوك تسلط حكومة الخلفة في رعيته وسلطانها القاهر بدى هرقل في سقف توحيد ذوقه على حرية والعدل لا المحكوم مهملا لنفس تتحيا بالوطنية وتميل لحلاوة الحرية

والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم لوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط فى السيادة حتى بلغ بعبد الملك بن مروان أن خطب يوما خطبة أشار فيها الى أن من راجعه فى أمره فقد تعرض للقتل مع أن عصر بنى مروان هو العصر الذى كان يرجى به استثمار البذور الدينية والقراطية التى بذرها الخلفاء الراشدون لاستغلاط شأن الاسلام يومئذ وتفرغ الناس الى النظر فى الشؤون الادارية بعد انهماكهم فى الشؤون الحربية واشتغالهم بالفتح وما نحال الباعث للأمة العربية على الانعلاب لشهوات الملوك من بنى مروان الا ذلك المربح الذى تألف منه جسم المجتمع الاسلامي يومئذ وأجسامهم الموالى من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (حمراء) ويتوقع منهم كثيرا من الشر وفى الحقيقة فقد علمت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها وتشتت قبائلها فى فارس والروم والشام ومصر وافريقيا والاندلس فلم يغنهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم لدين حلا لهم الحكم وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن يتم هدو ذلك النبات الطيب لاعتدائه فى عصر الحضارة الاسلامية واحتباء ثمراته الشهية فسطا يد القوة وتسلط فى الاستبداد ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط فى قوة الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لمانزعوا مانزع حروت وهدم ركن الشورى دمطمح انظار الشعوب ومناط سعادة الناس لحرية والعدل ومتى كان هذا أساس الحكم فى دوله من الدول فقد تحصل الناس على منتهى ما يرجون من تقعيد الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من [illegible] لا سودة [illegible] حوزتها دود عن حوضهم ودفاع

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح فى حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً فى دولتهم وهل يلجئ الناس الى الوثوب على الملوك والخروج على الدول والرعبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدوله لجعلوا لأحلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التى وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم مستطمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوابين خاصة ترسخ عليها دعامتها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلا عليهم لو التمسوا اليه الحيله باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت لاسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة لدلك الحيل من الروم محفوظة فى مؤلفات القوم والذى أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الاصول الادارية وغيرها عن الروم والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الامور التى لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التى عانتها غيرهم من الأمم التى سبقتهم فى الحضارة لو أخلصوا لنية ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا للدول الاسلامية أساساً ثابتاً فى نوع الحكم لا يأتى لاية دولة اسلامية مذ حينهم بعدهم أن تضع مثله البتة لاسباب عديدة أهمها إطلاق السيف فى كل شئ بين وحصره على لامة العمل أى أمر نافع لا ما يجب لصحة الدين وكان سيفهم كسيف لا يحيد

عنه أحد من المسلمين ولو نحر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم ودهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقي عند الأمم الأخرى كما انتفع الاوربيون من المسلمين في كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود اليه في محل آخر ان شاء الله

﴿ عود الى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلي بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني أقم وابعث جداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يُهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم ففي أنف الأمر خشيت أن لا يكبّر المسلمون وان لا يشهدوا أن لا إله الا الله أبداً

ولعمر هذا الرأي والاخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ادأن المسلمين يومئذ كانوا أحوج الى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل في الجزيرة والعشة تركد فلو أصيب عمر بسيء لصدق ما قاله عبد الرحمن بن عوف لان هيبة عمر وسيرته وشدة في بكر قلبه وروّيته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ومكنت للاسلام والمسلمين السلطان في الارض

يا أيها المسلمون في المشورة وفي عمر كتب سعد بن أبي وقاص وكان عامله على صدقات هوازن ممن تخلفوا عن شهود الوقعة لحرب الفرس وهم الف فارس فقتل بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته قال في الاسد عادياً قال من هو قال سعد فانتهى كتاب قومه فأرسل اليه فقدم عليه فأمّره على حرب العراق وسار معه الناس لكل هم ممن يزعجون في الشام وكانت مصر ترع الى

العراق فقال عمر (أي لأهل اليمن) أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما أمّر عمر سعداً رضي الله عنهما أوصاه فقال

يا سعدُ سعدُ بني وهيب لا يغرّنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عزّ وجلّ لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعثه الى أن فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين

ثم لما أراد أن يسرّحه دعاه فقال

اني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلّص منه الا الحق . فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتحه واعلم ان لكل عادةٍ عَاداً فمتاد الخير الصبر . فالصبر الصبرَ على ما أصابك أو نابك يجتمع لك حشية الله . واعلم أن حشية الله تجتمع في أمرين في طاعته وجتنب معصيته وانما أطاعه من أطاعه بعض الدنيا وحبّ الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبعض الآخرة . والقلوب خلق يشاء الله إشاءه منها سريرة ومنها علانية فأما العلانية فان يكون حامداً وده في خلق سوء وأما السريرة فيعرف ظهور الحكمة من قلبه على لسانه وتحبة الناس له ولا يرشد في معشر النبيين قد سألوا محبته وإن تمادا حبّ عبد حبّه وبغض بغضه .

فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حُمَيْضَةُ بن النعمان البارقي وشداد بن ضِمْنَح الحصري وعمرو بن معدي كرب على مَذْحج ويزيد ابن الحارث الصُّدائي وبشر بن عبد الله الهلالي وشُرَحبيل بن السمط الكندي واضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضي الله عنه الى الاعوَص وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة والليان وان ينهوا شؤونهم اليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه وستأتي الخطبة في باب خطبه ان شاء الله

سار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل رزود من أرض العرب مما يلي العراق وأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ووافاه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذي شهد القادسية نحو الثلاثين الفاً بمن نضم اليه من جند العراق الذين كانوا معه المثنى ولما رحل سعد عن رزود كتب اليه عمر (رض) أن ابعث لي فرّخ [1] الهند رجلاً ترضاه يكون بحيالك ويكون ردءاً لك من شيء يأتيك من تلك النحوم فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة فكان بحيال لاتك من أرض العرب ونزل على حرير وهو مرابط هناك يوطئه ويمالحه سعد شهراً ثم كتب بمنزله الى عمر بن الخطاب (رض)

---

[1] هذا رسم [illegible] هي التي كانت تعبر العراق ويشد عبرها [illegible] في حديث فارس

فكتب اليه عمر: اذا جاءك كتابي هذا فسرّ الناس وعرّف عليهم[1] وأمّر على أجنادهم وعبّهم ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهودهم وجّههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة في حيله واكتب اليّ بالذي يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعبّاهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش في هذا العصر وسأتي على تفصيل الخبر عن هذه في غير هذا المحل ان شاء الله ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشدّه احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً بحركة ما لم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوّة العدوّ ومبلغ كفاءة القواد والجنود

لما أعدّ سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه كتب بذلك الى عمر وجاءه في عصون ذلك المثنّى بن حارثة أخو المثنى وروحته حَصَفة اليمية بوفاة المثنى ووصيته لسعد ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوّه من أهل فارس بعد اجتماع أمرهم وملوكهم في عقر دارهم وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب ولمّا انتهى الى سعد رأي المثنى ووصيته ترحّم عليه وأمّر أخاه المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته وحفظ امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثنى على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة جسر الناصية واستخلف على جيشه بشر بن خصاصية وقد كان رضي الله عنه عجز عن كثير من السباحة والاقدام والسير المعنف في شؤون الحرب لما اعتراه من الوليد وكان مدة وجوده على الجيش في أثناء حروبه مع الفرس حتى

(١) قال في تاج العروس عرّفت الناس تعريفاً من باب ضرب

ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقى المثنى أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الاقدام على أن يتوسع في الفتح ويرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوّخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه أبا عبيد فكان معه ما كان من الانفراد بالرأي والوقوع في الهلكة وما زال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستخضع الحارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثمة حتى وافاه سعد فوافته منيّته قبل أن يراه ويتحقق أمله في تدويخ بلاد الفرس فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد يوصيه به بمثل وصية المثنى

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن صمصم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وأرضاه

فنظر سعد جواب كتابه لدى عوده الى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه بأن لا يقاتل الفرس الا في أطراف بلاد العراق مما يلي البادية وأن يلاقيهم في القادسية ويوصي جمعه بالاناءة والصبر والثبات وأن يحتاط لخديعة الفرس ومكرهم وسنأتي على جميع ذلك مفصلاً في كتبه ان شاء الله

فرتّب سعد الجيوش على ما كتب له في الجهات فوافاه كتاب عمر رضي الله عنه يوصيه بسرعة السير الى حدود بلاد العراق ومحاربة الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبأن يعي بأمان من يؤمّن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهمها وطنها أماناً وستأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فانا رأينا أن نأتي به هنا لضرورة إيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبري)

إني قد ألفي في روعي انكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحدكم أحداً من العجم أماناً أو قرفه (١) باشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمي ما كلّمه به وكان عندهم أماناً فاحرروا ذلك له مجرى الامان واياكم والصحك. والوفاء الوفاء فان لخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالمدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم ودهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا اني أحذركم أن تكونوا (أي بعدم الوفاء) سبباً على المسلمين وسبباً لوهنهم

كلمة في التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين

هذا الكتاب يدلنا على أمرين لامر الاول رأفة في الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الحديدة في هذا العصر وحده بل هي من خصائص الدين الاسلامي أيضاً وقد سبق بها العرب على عدوتهم سبقاً بعيداً لا تسبق غاياتهم فيه عيبة الامم وحسبك من ذلك أن من شرط الاستئمان في الحروب القانونية عند الامم تسليمه لهذا مجرد إلقاء السلاح ورفع الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك وهو مجرد الاشارة ونحو

(١) قرفه [illegible] واتهمه بجهله

نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان

والامر الثاني ان ما يتخرص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الصحح الاسلامي منشؤه اما الغيظ والضغينة واما سوء الفهم المتأتي عن تشويش التاريخ الاسلامي وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وحلطهم عشه بسميه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار إلا لمن يدقق النظر ويستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وما ذلك الا لتجنب مؤرخي الاسلام لملسعة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم في أخبار الحروب الاسلامية دون الدرائع العلمية التي ترقى بها لامة في الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية حتى أن المدنية الاسلامية التي صبغت شهرتها الآفاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها لى الان أشبه في العموص بمدنية لامم البائدة التي ينقب البحثون في تاريخها عن دفائنها الارضية وآثارها العافية ليقفوا على تاريخها العابر بل لغ لعموض تاريخها وغموض صرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان أحدنا لو أراد أن يعرف كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك سبيلا لعهد قريب عهده من العصور فكيف بذلك القديم والا فأين هو لعمر أبيك السر الذي يفصل من أخبار السلف التي تتعلق بعاداتهم العابرة وأصول معيشتهم وسياستهم وعوائدهم وزيهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالادارة والقضاء والسياسة وحسبة الصول لتعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بشؤون الامة وحياتها الاجتماعية الى ذهبت أهل المغرب أيام الحروب [illegible] والقيام على شؤون

الادارة والحرب مالم يخطر لهم في بال

اللهم انا لانرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق العرض مستوراً في ثنايا الاخبار وربما ألم بعض المؤرخين بشيء من ذلك كالخطيب في تاريخ بغداد والمسعودي في تاريخه الكبير الا اننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ الا شذرات منقولة في تضاعيف الكتب والاصل مفقود العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفي الغليل

فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامي في عصور الترقي والحضارة وذلك شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب فلا حرم ان يطن الجاهل والعدو أن الامة الاسلامية انما وجدت لارعاج العالم بالحرب والقتال وان تتشوش الحقائق المندمجة في أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامها في عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل الذي وصلنا من اخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل لو استقصيت ودوّنت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين في كل عصر وأصقاع الدنيا ما تمس اليه الحاجة الماسة لترقي الدول والزمان لما وجد لاعداء سبيلا للقدح في الفتح الاسلامي وكذلك لو عني المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية في عصور الترقي الاسلامية لكانت لهذه المهدمة لا تنسج عليه لامة ومتى يحرك فيها حد لاسترجاع مافات والتوثق من حصد استقلاله وصون حيثيته هوت

من حضيض التدنية وسيرها

لما تهي سعدي عيب [illegible]

القادسية (١) وبلغه على أربعة أيام ترك جيلا وجدا يحوط الخربة فلم يحدث القادسية حتى أتاه من الفرس فاختبث السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه موقف المدافع حتى لا شارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيونه الى الحيرة وغيرها ليأتوه بالخبر فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولى رستم بن الفرخزاد الارمني حربه وأمره بالمسكرة فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه عمر

أما بعد لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجا (٢) عليهم واكتب الي في كل يوم

وأما رستم فانه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة الف مقاتل أو يزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد الى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر وآراء وعليهم مهابة فبعثهم الى يزدجرد يدعونه الى الاسلام أو الجزية وهم النعمان ابن مقرن ونسير بن أبي رهم وحملة بن جوية الكناني وحنظلة بن الربيع التميمي وفرات بن حيان العجلي وعدي بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن البباش وعطارد ابن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمثنى بن حارثة فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة ليزدجرد فطوى وارستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فحسوا ريثما جمع

---

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين

(٢) قال في القاموس الفلج الظفر والفوز

يزدجرد وجنوده ودولته واستقرار هيبة الجيش بها اجتمع رأيهم أن لم يأذن لهم فاوجفوا عليه وجرى بينه وبينهم كلام طويل سيرد معناه في سيرة سعد بن وقاص (رض)

ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبة الى رستم وكان رجلا داهية ذا بصيرة ورأي الا أنه أبى أن يجيب الى الاسلام أو الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين الى أن قتل حروب شديدة انتهت بفل جموع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما ستري تفصيل الخبر في سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا الى ان ظفروا شهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه فانضم الى حالة القادسية في بابل فأرسل اليهم رُهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سعد الى المدائن وهي نهرسير[1] ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فعمم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن مالا يعد ثم دعا سعد الدهاقين الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سوادي الا آمن واغتبط أهل الاسلام ثم بعد ان ملك المسلمون ايوان كسرى جعلوه مسجداً وان سعداً ليصلي فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وماسبذان فافتتحهما وهرب كسرى من حلوان الى لري وقيل

(١) المدائن هي عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من جنوب العراقي من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسميها الافرنج اكطاسيفون

الى اصفهان وكان ذلك سنة (١٦) وأقام سعد فى المدائن الى سنة (١٧) وفتحت جيوشه فى غضونها تكريت والموصل ثم تحوّل الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره فى محله ان شاء الله

﴿ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ﴾

(كيف يكون الاستعمار)

انّ من الاصول السديدة فى الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون هذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح وأصلاً تموّ بنماته ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسّط أهل المملكة فى العمران وحد المستعمر من وسائل الكسب عندهم مالم يحده فيما لو نضب معين ثروتهم وانكمشت عن العمل أيديهم وقلّ ان تراعى الدول الفاتحة هذا الاصل السديد والمرمى البعيد فى الممالك المفتتحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد التى أخذت عنوة ملكاً حلالاً لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطرق الاكراه التدريجية لتستأثر بها أهل ملتهم ويستعين منها وطنهم على زعمهم ولم يعهد فى هذا العصر دوله من الدول المتمدنة الاوربية تراعى حفظ الاصل فى الثروة لأهله فى المستعمرات الافريقية والاسيوية الا دوله انكلترا فربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل فى مستعمراتها الكثيرة الشاسعة وأحقهن وطأة على الرعية مع أن دعوى التمدن العريضة تستدعي الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الاوربية وتستلزم مراعاة الاصول الاقتصادية فى حكم البلاد المفتتحة كما هى مرعية فى تلك الاوربية وهيهات هيهات فان غلبة الشهوات تمحو عن وجه البسيطة كل أثر مستقيم ولا العلماء فى ديار المدنية وليت شعري كانت من الفرح الذين يرمون الفتح الاسلامي وأهله بوصمة التحرب

والتدمير ويسمونهم بسمات البداوة يبحثون فى التاريخ الاسلامي عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم مايفيدون به دولهم المتمدنة في وضع أساس العدالة وحفظ اصول الثروة لأهلها فى الممالك المفتتحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم حملة الافرنج اهله بالبداوة والتخريب إنما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت اعلام دولته على اخصب ممالك الارض لعهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله فى الرعية ان حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروة الافراد وخصب الارض وجدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتمدون في رصهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع ارضهم منهم ومن ذلك مارواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بأن عطاءهم قائم وورق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبد الرحمن ان شريك بن أبي نمر المعروف بالعطيفي أتى لى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تعطونا مايحسبنا (يكفينا) فتأذن لنا نزرع فقال له عمرو ما أقدرعلى ذلك فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما علم ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن نمر المعروف بالعطيفي زرع ارض مصر فكتب اليه عمر بن الخطاب أن انتزع منه حتى كتب عمر الى عمرو بن العاص فقرأه شريكا فقال سريت عنه يا عمرو فقال عمرو أما ثم صدقت هذا سفسك فقد كان هذا من رأيك فلما رجع الكتاب وثب به

الله ان أجعل يدي في يده (يعني انه لا يهرب) فأذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال : تؤمنني يا أمير المؤمنين : قال ومن أي الاجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلسلك شريك بن سمي : قال نعم يا أمير المؤمنين قال لاجعلنك نكالاً لمن خلفك . قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد : قال او تفعل . قال نعم فكتب الى عمر وأن شريكا جاءني تائباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لما افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته إن تتفاسدوا بينكم في المياه قال فاقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب قال . كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم فاذا أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال او كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يأتي بعدهم شيء وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه

ولما من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم لهم ان حذيفة بن اليمان كتب من عمر رصاً يقتلي [1] فيها حيله فكتب الى أبي موسى الاشعري وكان عبد الله سأله رصاً على شاطئ دجلة يقتلي فيها حيله فان

---

١ في [illegible] عن الرصاع او قطعه [illegible]

كانت فى غير أرض الجزية ولا يجز أليها ماء الجزية فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المغيرة بن شعبة فى ولايته كتابا غير هذا وهو بمعناه كما تراه فى محله ان شاء الله وهذا وأيم الله من الاغراق فى العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها فى هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج فى العراق فهو انه لما زال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوصائع على نحو ترتيب كسرى أبو شروان الا انه حوفا من احجاف العراقيين أو تظلمهم رأى ان تمسح أرض السواد وتقرر أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقر فبعث عثمان بن حنيف الانصارى الى العراق العربى وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها ومذارعها فجعلا على جريب (١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتبا بذلك الى عمر فأجازه وفى رواية لابى يوسف انه جعل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج ابو يوسف والبلاذرى عن الشعبى ان عثمان بن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أي ستة وثلاثين مليونا) وفى رواية انه استثنى النخيل وفى رواية ان عمر انما النخل فى ولاية المغيرة بن شعبة على العراق

---

(١) في قاموس جريب [illegible] في تاريخ المسلمين [illegible] عرضاً في وهو مقدار جريب [illegible]

والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد لانه مادة التجارة في العراق .

وبلغ خراج العراق في ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافي التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أو لمن هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافي بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخص جعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا في هذا العدد متوسط الجزية الذي هو أربعة وعشرين درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتي ألف درهم اذا أضيفت الى مبلغ الخراج عما فيه خراج الصوافي فيكون مجموع الجباية في العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين مليونا درهما وهو نيف ألف درهم[1] كان ينفق في اعطيات الجند وارزاق المسلمين عما عدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق ما يلزم من الجباية لاصلاح الجسور وحفر الانهر ومن الانهر التي حفرها عمر في العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ونهر سعد بن عمرو بن حرام قرب الانبار وغيرهما

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي في مناقب عمر عن عمر بن ميمون

و ب في مناقب عمر للامام ابي الفرج بن الجوزي ان جباية العراق العربي المعروف بسواد العراق في عهد عمر كانت مائة وعشرين مليوناً [illegible] درهم وان عثمان بن حنيف مقدر بن الجوزي ومن تبعه قد [illegible] درهم السبي فقد كان ثمانية [illegible]

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الارض مالا تطيق قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن الى أحد بعدي أبدا فما أتت عليه الاربعة الا أصيب وروى أبو يوسف في الخراج ان عمر كان يحي الخراج ثم يجرح كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد وهل بعد هذا العدل عدل نؤثره عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله . هكذا كان ما يسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب ذ تأسس على قاعده حفظ الثروة لمحليه لاهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح والصلاتموغ نأنه ثروله الدوله وانما اخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو اول كتاب الهي قرر هذه القاعدة وذلك ان عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الارضين في العراق والشام أي الاالقاءها بيد اهلها وانتفاع المسلمين بخراجها فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حررت وقسمت هذا رأي وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الارضين بكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطا في كتاب خراج لابي يوسف وقال بل وجدت حجة لله تعالى في كتابه وتلى الآيات التي نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهي من أفاء الله على رسوله) في قوله تعالى [illegible] والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والاصناف الذين سوف يأتون من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم وقد استوعبت هذه الاصناف جميع المسلمين فلم يبق لاحد حق في هذا المال الا وقد ذكر في هذه الآية

فسمى هؤلاء (يعني الفاتحين) وتبع من تخلف من بعدهم بغير فيء فاجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك الحاضرون وتم الامر ان تبقى الارضون بيد اهلها لتكون مادة تستمد منها اعمالها والعاملون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستمرار العادل وسياسة المتين

لما عهد أمر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بعث عتبة بن غزوان والياً على البصرة وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وامارة الحرب العامة على كل ماغلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولما عزله ولى عمار بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الاشعري ثم عمر بن سراقة وغيرهم وولى على الخراج العمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ثم ولى عملهما حذيفة بن أسيد وحابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس وكان يماري سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفصل في أيام حروبه في الردة فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واشتغل وجاء بأعظم مما جاء به العلاء رأى العلاء ان يماري سعداً ويؤثر أثراً في الاعاجم ونعمت المماراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو تكن بدون ادن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن لحوص حوشه في البحر تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأما العلاء فقد تسرع وبدت له لمناجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

حينئذ عدته ١٢ ألف مقاتل فيهم من الرؤساء الحارث بن الملي والسوّار بن همام وعلى الجميع خليد بن المنذر بن ساوي فحملهم في البحر الى فارس فخرجوا الى اصطخر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهرمزيد فأعلم ان قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالاً شديداً وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الحارث وسوّار فاستمات ابناهما عبدالله بن السوّار والمنذر بن الحارث فقاتلا حتى قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول

يالَ تميم اجمعوا النزولَ وكادحيش عمر يزولُ
وكلكلم يعلم ما أقولُ

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأحدق الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا وداموا العدو ومدافعة الابطال الصناديد

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته مايصير اليه من الهلاك في تلك البلاد النائية فاشتد غصبه على العلاء وكتب اليه يعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وذلك ان يضم من معه الى سعد بن أبي وقاص ويكون تحت امارته وكتب الى عتبة بن غزوان والى البصرة بالخبر وأمره ان يندب الناس الى نصرتهم قبل ان يجتاحهم الفرس فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والاحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم فخرجوا في نحو عشرة آلاف على المعال يحمون الخيل كي لايصيبها الركوب وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك وساحل (أي مشى على الساحل) أبو سبرة والملاح في الاهواز وهم

ردد له حتى التقى خليد بحيث عسكر وأخذ عليه الطرق وحصرهم ووجدوا البيوت الوابل فاستصرخ خليد أهل فارس على المسلمين فاقبلوا عليهم من كل فج فالتقوا هم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور بركة رأى عمر وأخذ الجيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو وكان لاهل البصرة فضل عظيم بانقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش الى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فاذن له فلما قضى حجه استعفاه فابى ان يعفيه وعزم عليه ان يرجع الى عمله فانصرف على غير رضاه فمات في بطن نخلة فدفن وبلغ عمر وفاته فاثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رهم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبة في السنة الثانية فاستمر فيها الى ان جرى بينه وبين أبي بكرة ما جرى مما سيأتي في محله ان شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه أبا موسى الاشعري

خبر الهرمزان

وفتح الاهواز وتُستَر والسوس وغيرها

كان الهرمزان أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز [1] وتولى أمرها وأخذ يغير على

---

(١) الاهواز اسم ولاية وقعت بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن نلخص هنا ما ذكره في ذلك ياقوت في معجمه وهو

الاهواز جمع هوز في قول جمع حور فهي على القول الاول محرفة عن حور والحور مصدر حار الرجل اذا حور حوراً اذا حصله وملكه والحور في الارض ان تحيا حتى وعش حورها فلم تحمها فلا يكون لاحد فيها حق فذلك الحور

أهل ميسان فقتل منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستعمل أفاتة بن معبد بن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما ان يأتيا على ميسان ودستميسان ووجه عتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود أرض ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو اللهيم بن مالك فاقتتلوا معهم على المعاضدة وان يثوروا بالهرمزان وكان من زعمائهم عالب الوائلي وكليب بن وائل ونعيم ونعيم وبلغ ذلك الهرمزان فسقط في يده فانهزم فتبعه المسلمون وقتلوا من قومه ماشاؤا حتى انتهى الهرمزان الى جسر سوق الاهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بحياله فلما رأى مالا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا الى عتبة بن غزوان بذلك فاجاب عتبة الى الصلح على الاهواز كلها ماحلا نهر تيرى ومسافر وماغلبوا عليه من سوق الاهواز فانه لا يرد عليهم وجعل سلمى بن القين على مسافر مسلحة وأمرها الى عالب وحرملة على نهر تيرى وأمرها الى كليب فكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك الى عمر ووفد اليه وفدا منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا ووفد معهم بعض وجوه أهل البصرة وفيهم الاحنف بن قيس فأمرهم عمر ان يرفعوا حوائجهم وكلمهم قال اما العامة فمات صاحبها ولم يبق الا حواص أنفسنا فطلبوا لانفسهم الا الاحنف بن قيس فانه تكلم فاعرب وأعرب عن حاجات البصريين فأحابه عمر اليها وقال هذا الغلام سيد أهل البصرة ثم كتب الى عتبة بن غزوان فيه بان يسمع منه

وعلى النول الثاني الاحواز مواضع في حور بسابور وموقع الاهواز بين البصرة وفارس وكورها اى امسامها سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجنديسابور وسوس وشرق ومهرجان قذق ومسافر وكان خراجها ثلاثين الف الف (٣٠ مليون) درهم وكان العرس سعد عامل حمص الف الف وعصمه هذا القسم هرمزدار سابور او سوق الاهواز

ويشرب برأيه ؛ وقيل بل احتبسه عنده فى المدينة وسيأتى الكلام على هذا في فى سيرة الاحنف ان شاء الله

ثم ان عمر رد سلمى وحرملة وعالبا وكليبا الى ماذر ونهر تيرى فكانوا عدة فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان وبين عالب وكليب اختلاف في حدود الارضين فحصر ذلك سلمى وحرملة لينظرا فيما بنهم فوجدا عالبا وكليبا محقين والهرمزان مبطلا فحالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان أيضا ومع ما قِلَّةُ واستعان بالاكراد فكثف جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدهم عمر بحُرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة وأمّره على القتال وعلى ما غلب عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه فمر الى رامَهُرْمُزْ وافتتح حرقوص سوق الاهواز وأقام بها واستتبت له بلاد سوق الاهواز الى تُسْتَر ووضع الجزية وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث حَزْء بن معاوية في أثر الهرمزان بأمر عمر فانتهى الى قرية الشعر وأعجزه بها الهرمزان فمال حزء الى دَوْرَق (وهى مدينة سُرَّق) وفيها قوم لا يطيقون منعها فاخذها حزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا من هرب الى الجراء والمسعة فاجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص بن معاوية بن زهير لزوم ما غلبا عليه والمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبري في غضون هذا الخبر ان حزء بن معاوية استأذن عمر (رض) فى عمران البلاد فاذن له فشق الانهار وعمّر الموات وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فانهم ما وطئوا أرضا الا عمروها وأنصفوا أهلها فى الحكم والمعاشرة والجوار

واما الهرمزان فانه لما رمز وطلب الصلح فصولح على ما لم يغلب عليه

المسلمون من أرضه فاقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنعونه وان عار عليه اكراد فارس منعوه وكان ذلك فى سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أى جحد) مرة أخرى وذلك ان كسرى يزدجرد حرّصه على العصيان وحرّض أهل الاهواز عامة فانتهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصره فكتب عمر الى سعد أن ابعث الى الاهواز بعثا كثيفا مع النعمان بن مقرّن وعجّل وابعث سويد بن مقرّن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له وكتب بمثل ذلك الى أبى موسى الاشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره ان يسرّح الى الاهواز جندا كثيفا وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى أبى سبرة ابن أبي رُهم فخرج النعمان فى أهل الكوفة فاخذ وسط السواد حتى قطع دجله بحيال ميسان ثم أخذ البر الى الاهواز وانتهى الى نهر تيرى فحارها ثم حار سوق الاهواز وحلّف حُرقوصا وسلمى وجرملة أمراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره الشدّة ورجا أن يقتطعه وقد طمع الهرمزان فى نصر أهل فارس وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم تُستَر فالتقى النعمان والهرمزان بأرك فاقتتلوا قتالا شديدا انتهي بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان الى تستر ثم توافى الامراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فامدّهم بأبى موسى والطاهر ان جنود الفرس التي كانت جاءت مددا للهرمزان كانت كثيرة العدد لهذا حاصروهم أشهرا وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز فى عصون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزأة بن ثور ومثله كعب بن سور ومثل مثل ذلك كثير من

أبطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان يدله على مدخل للمدينة فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا مع المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فرّ الى القلعة واعتصم بها ثم طلب الامان على ان ينزل منها على حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل ليلتئذ جمع من المسلمين فيهم البَراء بن مالك ومجزأة بن ثور قتلهما الهرمزان بنفسه

وخرج أبو سَبْرة في أثر الفل الى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك الى عمر وكتب عمر برد أبي موسى الى البصرة وان يسير زِرّ بن عبد الله بن كليب الى حندي سابور وأمّر على جند البصرة المغترب الاسود بن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك

ثم ان أبا سبرة أوفد الى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً في ميمنة المسجد متوسداً بُرْنُسه فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هوذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال في نفسي ان يكون نبياً فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالحَلَبة فاستوى جالساً ثم نظر الى الهرمزان فقال للهرمزان قالوا نعم فتأمله وتأمل ما عليه وقال الحمد لله الذي دل بالاسلام هذا وأشياعه يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تطرتكم الدنيا فانها عرارة ثم قال هيه يا هرمزان كيف

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله . فقال يا عمر إنّا وايا كم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم فغلبنا كم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا

هذا هو القول الحق الذي لا مراء فيه اذ ما محق الامم وذهب باستقلال الشعوب الا التفرق ومامهد للمسلمين سبل النصر على الدول الا اجتماع تلك القبائل المتفرقة على كلمة الاسلام وتمسكهم بعرى الاخوّة والوئام هذا على اعراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وحدتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متسقة الى عهد الحضارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا في مناحي العمران لما تطرّق اليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ولكن سُلِّط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الاعداء وتناسوا يارباه روابط الاخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعد فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوئام وأفقر للالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً تهر أعصاب الاموات وتثير في النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تحادل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرّقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنيه تراحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الامة الاسلامية الى تمزّقها الاعداء والفاتحون وراحمها على أرضها الغريبون وطاردها في حماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحران الغفلة مستسلمة لاحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر لا يلتمس لها محرجا من هذا الضيق ولا تفتأ عبد رؤسائها لدين

قذفوا بها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين

ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وماحجتك فى انتقاضك مرّة بعد مرّة فقال أحاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتى له به فى قدح غليظ فقال لو متُّ عطشاً لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه فأطهر الجزع وقال اني أحاف ان أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر . لا بأس عليك حتّى تشربه فاكفأه فقال عمر . أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لى في الماء انما أردت ان أستأمن به فقال له عمر انى قاتلك قال قد آمنتنى فقال كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته قال ويحك يا أنس انا أومن قاتل مَجزأة والبَراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنّك قال قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حصر مثل ذلك فاقتل على الهرمزان وقال حدعتنى والله ولا أخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين وانزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل والا فما نحاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء الي هذا الحد والله أعلم

حشي عمر رضى الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل ذمتهم فى فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعلّ المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى فقالوا لا ما نعلم الا وفاء وحسن مَلكه قال فكيف هذا وما سبب غدر أهل فارس فلم يحدث أحدهم شيئاً يشفيه ويُصدره مما يقولون الا ما كان من الأحنف بن قيس فقال يا أمير المؤمنين انا أخبرك بذلك بعيتاعن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى

أيدينا وإنّ ملكَ فارس حيٌّ بين أظهرهم وانّهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتّقاحتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت انّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الّا بانباعثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسيح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزّ أمّته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويصربون جأشا . فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه ونظر في حوائجهم وسرّحهم وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند فتحرك في نفسه أن يأذن بالاسياح بعد ان كان متوقفا فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لاهل فارس وعظيم قوّتهم وصخامة سلطانهم

قدمنا ان أناسيرة ذهب في أثر المنهزمين من جود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الاشعري وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من أشراف فارس وعظمائهم الى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب فمضى سياه الى السوس وقد سلّمت ودخلت في حورة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتُستَر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته انهم ظافرون بالدولة الفارسية لا محالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم قد علمتم انّا كنّا نتحدث انّ هؤلاء القوم أهل الشقاء والدؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدّون حيولهم بشجرها وقد علموا على ما رأيتم وليس يلقون حدّاً الّا فلّوه ولا يرلون بحصن الّا فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيك قال فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فاني أرى ان ندخل في دينهم . وانما أمرهم بان يكفوه لحدثة لاقيها لعساه يحدث منهم

فيما لو أسلم أشرافهم فلبّى الرؤساء أمره ثم وجّهوا أحدهم واسمه شيرويه الى أبي موسى في عشرة من الاساورة فقدم عليه وقال له . انّا قد رغبنا في دينكم فنُسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وان قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا باشراف العطاء(١) ويعقد لنا الامير الذي هو فوقك بذلك. فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ما علينا. قالوا لا نرضى: فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه ان أعطيهم ما سألوه ورأى منهم مرة تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا اليه بقلة العطاء فكتب بذلك الي عمر (رض) فكتب اليه ان ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه العرب فعرض لمائة منهم في العين ولستة منهم في العين وخمسمائة فقال الشاعر

ولمّا رأى الفاروق حسنَ بلائهم ... وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسنّ لهم العين فرضاً وقد رأى ... ثلاثمئينَ فَرْض عَكٍّ وحميرا

وفي هذه الابيات استحسان لما صنعه عمر رضي الله عنه بالحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتي من قِبلهم ولا جرم ان الانتفاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الحليفة العظيم الذي أدهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضي الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء

﴿ عمر عند سابور ﴾

(وأمان عبد امصاه جيش المسلمين)

روى الطبري ان أناساً نزحوا لما فرغ من السوس جرح في جسده حتى نزل على

---

(١) كذا في تاريخ الطبري ولعله باشراف العطاء أي اعلاه أو الاشراف من أهل العطاء والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب أو الماهية وسيأتي الكلام عليه في هذا الكتاب

جُنْدَى سابور وزِرّ بن عبد الله بن كُلَيب محاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوماً الا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الاسواق وانبث أهلها فخار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم ان مالكم: قالوا وميتم الينا بالامان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على ان تمنعونا فقال المسلمون مافعلنا. فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا. فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا عبد يدعى مُكنِفاً كان أصله منها هو الذى كتب لهم فقالوا انما هو عبد فقالوا انّا لانعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه فقبلناه ولم نبدّل فان شئتم فاغدروا فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم

انّ الله عظّم الوفاء فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ما دمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم نعلم هذا العهد من اخلاق أولئك الفاتحين السامية انهم يحيزون أمانه وان أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى لقومه بالامان واستنر لهم من المعاقل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين وتتبعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارزة بالانسانية لكفوا أنفسهم مؤونة التهجم على ثلب المسلمين ووصمهم بالهمجية والتحرب فى أيام فتوحهم العظيمة ولكن ما الحيلة وانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور

(الانسياح فى بلاد فارس)

أشرنا فيما تقدم الى ما رآه الأستاذ بارنس من لزوم انسياح (١) الجموع الاسلامية فى بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستحصالاً بالفرس وقد سهى

(١) الانسياح هو الدهاء في فارس

عمر (رض) الى رأي الأحنف وأعرف فضله وصدقه فأعدّ لذلك العدة وقسم الجيوش وأمّر الامراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أبا موسى الاشعريّ ان يسير من البصرة الى منقطع ذمّة البصرة أي آخرها فيكون هنالك حتى يبعث اليه وبعث بألوية مَن ولّى مع سهيل بن عديّ حليف بني عبد الاشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء حراسان الى الأحنف بن قيس . ولواء ازدشير خرّه وسابور الى مُجاشِع بن مسعود السُّلميّ ولواء إصْطَخر الى عثمان بن العاص الثقفيّ ولواء فَسَا ودارابجرد الى سارية بن زنيم الكنانيّ . ولواء كرمان مع سهيل بن عديّ . ولواء سِجِسْتَان الى عاصم بن عمر ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبيّ فخرجوا في سنة (١٧ هـ) فعسكروا ليسيروا الى هذه الكُوَر فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدّهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة فأمدّ سهيل بن عديّ بعبد الله بن عبد الله بن عِتْبان وأمدّ الأحنف بعلقمة بن النَّضْر وبعبد الله بن أبي عقيل وبربْعيّ بن عامر وبابن امّ عرال وأمدّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشْجَعيّ وأمدّ الحكم بن عُمَيْر بشهاب بن المُخارق المازنيّ

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في عصون خمس سنين أعني الى نهاية خلافة عمر (رض) القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً وبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية لوخستان أي السند) شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت أعظم وقائع المسلمين في فارس بعد انسياح الجيوش وقعة نهاوند واحسن الفتح فتح حراسان فامّا فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضي الله عنهما لهذا نرجئ الكلام عليه الى سيرة الأحنف بن قيس وامّا فتح نهاوند فقد كر طرفاً

من خبره هنا لأهميته ولكثرة ماعاناه المسلمون فى هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدة العدو وعدته فنقول نقلا عما رواه الطبري فى تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذى هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس وخوفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك اذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش فى نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشروا والجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠ مقاتل فلما انتهى الخبر الى موبذان حلوان كتب بذلك الى سعد بن أبى وقاص وكتب هذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة واستشارهم فى الامر فمنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه الى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك وممن رأى ان يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان (رض) فانه قام فقال (١) يعذان تشهد أرى ياأمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب الى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين الى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم أحدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى تقضي بينهم الابحاث لاحلالهم في المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمتارعة ثم الضرب والاشتباك وبين أهل شورى وحدتهم واحدة وأخلاقهم رصينة وبينهم سليمة فلا يبدأ أحدهم برأي الآخر ولا يطاول في الكلام على سواه بل يبدي رأيه مع الأدب والاحترام فيقبل كان به والا فلغيره أن يقول ما يشاء

وعندك . قلّ في نفسك ماقد تكاثر من عدد القوم وكنت أعزّ عزّاوأكثر . ياأمير المؤمنين انّك لاتستقي من نفسك بعد العرب باقية(١) ولاتمتّع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . انّ هذا اليوم له مابعده من الايام فاشهد برأيك وأعوانك ولا تغب عنه . ثم جلس فعاد عمر فقال

انّ هذا اليوم له مابعده من الايام فتكلّموا فقام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال

أمّا بعد ياأمير المؤمنين فانّك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم الى دراريّهم .(٢) وإن أشخصت أهل ليمن من يمنهم سارت الحبشة الي دراريّهم . وانّك إن شخصت من هذه الارض انتقصت عليك الارض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ماتدع وراءك أهمّ اليك مما بين يديك من العورات والعيالات . أقرِر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرّوا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرَمهم ودراريّهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقصوا عليهم ولتسر فرقة الى احوائهم بالكوفة مددا لهم . انّ الاعاجم ان ينظروا اليك عدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشدّ لكلَبهم وألتَهم على نفسك . واما ماذكرت من مسير القوم فانّ لله هو اكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره . واما ماذكرت من عددهم فانّا لم نكن نقاتل فيما مضى

---

(١) [illegible] على نفسك اذ أصاب العرب شيء وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة [illegible] عن [illegible] من الهوّة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما اسكبر أمره [illegible] قوّة الفرس الحاسمة لحطر هجومهم على [illegible] جمع [illegible] وهو [illegible] رجل والنساء لواحد والجميع ومراده ان الروم [illegible] لا تقي لا [illegible] الاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر

فقال عمر · أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن علي الارض من أطرافها واكنافها ولئن نظرت الي الاعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم ولبقولن هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا علي برجل أوله دلك الثغر غدا واجعلوه عراقيا قالوا أنت أفضل رأيا وأحسن مقدرة وأنت أعلم باهل العراق فقال أما والله لا أولين أمرهم رجلا ليكونن لاول الأسنة اذا لقيها عدا فقيل من يا أمير المؤمنين فقال النعمان بن مقرن المزني فقالوا هو لها

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمدهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب الى عمر يستعفيه من امارة الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان امارة الحرب كانت أحب الى اقيال الصحابة من امارة الخراج لاعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها الى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقتال · واليك كتاب النعمان الى أمير المؤمنين ومنه ترى عداوته لنعيم كسكر وكيف كان يأنف دلك النعيم أما بعد ان مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى حنبه مومسة تلون له وتعطره فأنشدك الله امّا عزلتني عن كسكر وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان وينتصل نسبه بأدد بن طابخة المزني نسبة الى مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعمائة من مزينة وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بنهاوند

فكتب اليه عمر أن ائت الناس نهاوند فانى قد وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه فاني قد كتبت الى أهل الكوفة ان يوافوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسر الى الفيرزان ومن تجمّع اليه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقى بالنعمان فتكون له امارة الجيش وكتب الى سُلمى بن القين وحَرْملة بن مُرَيطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق العجمى وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فتقدم بعضهم الى تخوم أصبهان وبعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر ان ملك حد العرب ورحالهم فى الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم فى العلم بالحرب واستعن بهم وأشرب رأيهم وسل طليحة وعمرا وعمرا ولا تولهم شيئا

وهى بالعمرين عمرو بن معدى كَرِب الزبيدىّ وعمرو بن أبى سُلمى العنزىّ وهما وطليحة بن خويلد الاسدي من رعماء العرب فى حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم لانه رضى الله عنه كان لا يرى بأمير احد من رعماء الردة وان أدن لأهل الردة بالجهاد واستعن بهم للفتح وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما ساغ لعمر (رض) ان يأذن لهم بحضور الفتوح لاحاجته اليهم فى إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما مد تسلط المسلمين فى البلاد وحصول العرب على دلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم امامه عمرو بن أبى سلمى وطليحة الأسدى

لاستكشاف حال العدو فخاف عمر والتوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان بطلا شجاعا حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بان ليس بينه وبين نهاوند شئ يخشاه فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الميرزان وآخر اسمه بهمن جاذويه ووافى النعمان امداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة

وكذلك وافى أهل نهاوند كل من عاب عن القادسية والايام قبلها من أهل الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أريد بناء فسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة وبنوا له فسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حذيفة بن اليمان وعتبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوذر وربعي بن عامر وعامر بن مطر وحرير بن عبد الله الحميري والأقرع بن عبد الله الحميري وحرير بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حجر فلم يربناء فسطاط بالعراق كهؤلاء وفي هذا دليل على حسن الرابطة التي حملها الاسلام بين اشراف العرب

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في ذلك سجال وفي يوم الجمعة لحأ الفرس الى حصادقهم وحصرهم المسلمون فاقاموا عليهم ماشاء الله والاعاجم لا يخرجون الا اذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الامر فجمع النعمان أهل الرأي والحجة للشورى فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الاسدي ان يبعث النعمان خيلا تفاجئ الاعداء في حصادقهم وتحاطبهم ثم تجرحهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الحصن فيبادرهم الخيل ويقطع عليهم خط الرجوع فانتهى النعمان الى رأي طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فعمل وأنشب القتال مع العجم فلما حرجوا كمن وبدا لهم أجرياكعكشه المهزوم حتى قرب بهم من

حتى المساء وكان النعمان قد تقدم على الصفوف وحرض المسلمين على القتال وكانوا مسلمون مطيعون فحمل النعمان وحمل الناس ورايته النعمان تخفق تحوم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديدا وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط وسال الدم في أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق وزلق فرس النعمان في الدماء فصرعه وتناول الراية نعيم ابن مقرن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب أميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا الى الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فادركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع في أثره وأخذه ولما بلغ الخبر همذان جاءت خيل المسلمين في آثارهم فنزلوا عليها فخرج اليهم خسرو شنوم فاستأمنهم وضمن لهم همذان ودستبى وان لا يؤتى المسلمون من قبلهم فأجابوهم الى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمئن الناس

وقتل في وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال ان ممن قتل يومئذ طليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا ما فيها وما حولها وحملوا الاسلاب الى صاحب الاقباض (١) وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهرمزان صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على دحيرة لكسرى كانت عنده على شرط ان يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فاعطاه حذيفة ذلك وأخرج له تلك الدحيرة في سمطين (٢) وهي حوهر ثمين

---

(١) امين المال والعائم (٢) قال في القاموس السمط محركة كالحوالق أو القفة اه قوله الحوالق معربة عن چوال التركيه وهو ما يسميه الشاميون الآن العدل أو الكيس وما يسميه المصريون الزكيبة

كان عدد ثياب الزمان فأخبر أهل المدينة على رفعها الى عمر وقسم جثثهم الصنائع فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ورفع باقي من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب الاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف بن مسهم أخو بني ربيعة وكان عمر متململا ينتظر أخبارها وبدفما جاءه الرسول وأخبره بخبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محبا للمسلمين حريصا على حياة القواد يحزن حزنا شديدا اذا أصيب أحدهم

ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت في المسجد وأمر عمر نفرا من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وأخبره خبرهما وان الناس رضوا أن يكون له فقال له عمر: يا مليكة والله ما دروا هذا ولا أنت معهم فالحاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه. فأقبل راجعا حتى انتهى الى حذيفة فأقامهما بباعهما فأصاب أربعة آلاف الف (أربعة ملايين)

هذه هي الهمة التي قلّ أن تكون في بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ولقد صدق والله من قال للهرمزان ان عمر ليس نبيا ولكنه يعمل أعمال الانبياء وحقا ان هذه الاخلاق أخلاق الانبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها والا فاي خرج على عمر رضي الله عنه لو قبل هدية خصها بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم لو لم يكن متخلقا بأخلاق السوة المحمدية مخلصا لله في السر والعلانية ليس له رغبة في غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وعامهم ورعيتهم فرضي الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها وأسماها ومن الأمة بعمر ثانٍ

ورد خراجها الى أولادها وجعل نفقة في سبيل صدقاتها

ثم لما جن عليه الليل عاد الى المدينة فجعل أبو لؤلؤة ورجلان المغيرة لا يلقى منهم خيراً الا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كلبي وكان معه أربعة فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس وأسروه المسلمون ثم نسب الى حيث سبي

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الامان على أن يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار أعطاهم الامان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة[1] ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته. وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا (أضافوا) جنود المسلمين من مر بهم فاوى اليهم يوماً وليلة ونصحوا. فان غشوا او بدلوا فذمتنا منهم بريئة. شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩

---

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهود أهل الذمة عدة مرار في هذا الكتاب ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشرطون على أنفسهم للذمي المنعة أي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل عاصب ومحارب ومن كل من أراده بسوء ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة اعداء وطنهم دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الصحابة وهذه هي العلة في ان الدول الاسلامية لا تعمم احكام الجندية ولا تأخذ من أهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع أعدائها من أي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات الاسلامية ليدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

ونخلص مما تقدم من هذا الكتاب أن العرب لما أتموا فتح بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا بأصول الحضارة وتعلموا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران فشملوا اصلاح الطرق التي هي عون الأمم للتجارة والحربية اجباريا على أهل البلاد كما رأيت في هذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض ابن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ هـ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماه وزعما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم واغفال شؤون العمران فاشترطوا على أهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لأمم وافى البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لانا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لاسيما اذا أضفنا اليه انصراف همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة الى تمصير الامصار في العراق وشق الانهر واصلاح الجسور كما رأيت وسترى في هذا الكتاب

وكان الذي عقد صلح الماه مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل قارن واسمه دينار وبه سمي الماه الواحد ماه دينار وكان سبب صلحه ان أحد ابطال المسلمين وهو سماك بن عبيد العبسي أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه أن يقدمه الى الامير ليصالحه على بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وحمله على عمله فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تاما لعامل الكوفة فاختبر احلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم

ولما كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال

يا معشر أهل الكوفة أنتم أول ما مر رتم بنا كنتم خيار الناس فغيرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع · بخل وخب (أي خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) · ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين اتيتم فاذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الاهواز

وانما أحببت ايراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري مذ ولعت بالتاريخ من جهة تعبير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء علي ومعاوية رضي الله عنهما وما بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله ان شاء الله

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما أجملناه من خبر انسياح الجنود الاسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضي الله عنه وانما توسعنا في بعض الاخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي هذا من المشقة ما لا يطيقه كثيراً في ايراد هذا التاريخ على ان الفائدة التي قصدناها حاصلة ان شاء الله وفي القليل أحياناً ما يغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله ولي التوفيق

باب

﴿ فتح الجزيرة ﴾

الجزيره هي الجزء الشمالي من الاراضي الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبي فانه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحل العرب الى هذه البلاد من أزمان متطاوله قيل إنها تمتد الى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت في سنة (١٦ هـ) على يدي عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدي عياض بن غنم [1] لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحرير الخبر أنا ذكرنا في فتوح الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام وأن عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بان يمد أبا عبيدة في حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن امداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعض مدن الجزيرة

---

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب لهذا رأينا هنا مناسبة فتحه للجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر الفهري أو سعد وقيل أبو سعيد وابو عبيدة بن الجراح بن عمه وقد قيل معه بسم ومع حمد بن عمرو كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيره وولاية أبي عبيدة باسم وتوفي سنة عشرين وكان صالحا فاضلا شجاعاً سمحاً سموحاً لكرم رد اركب لانه كان يطعم الناس زاده فدا نفد تحر لهم جمله وكان سلاما من احد رضي الله عنه وارضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابية شخص للسلام عليه هو وخالد وأبو عبيدة ومعظم الامراء فطلب أبو عبيدة من عمر رضي الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ولما مات أبو عبيدة في طاعون عمواس سنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف اليه الجزيرة وأمره بالمسير الى فتحها فسار ومعه من القواد ميسرة بن مسروق العبسي وسعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وصفوان بن المعطل السلمي ويقال وخالد بن الوليد والاصح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفي هل سار من قبل سعد وهو في العراق أم من قبل أبي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التي فتحت هي الرقة والرها (أورفا) ونصيبين وحران وسميساط وسنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدي حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وحصن منيح والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام عرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ثم دخل الدرب[1] فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان وجاوزها الى خلاط وانتهى الى العين الحامضة ثم عاد فصمّم صاحب بدليس خراج خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ وولى عمر مكانه سعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث الا قليلا حتى مات فولى عمر عمير بن سعد بن شهيد الانصاري أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد وقتل أباه سعد

---

(١) قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى الروم اهـ وهو المقصود بقولهم الدرب أي دخل الدرب

يوم القادسية

فتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجري منها نهر الخابور ويصب في الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الاول ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ البأوسه والآوسة وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصاري وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو ما فوق الانبار فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف الى الرقة

وكان عياض بن غنم رضي الله عنه أعطى كتباً في الصلح لاهل الجزيرة وقد تقدم معنا في أواخر باب فتح بلاد الحجم بمناسبة الكلام على العمران في عصر عمر ان من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الدمة اصلاح الطرق والجسور وها نحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لاهل الرُّها وهو بنصه عن فتوح البلدان

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من عياض بن غنم لاسقف الرُّها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا الي عن كل رحل دينارا ومُدّي قمح فانتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيدا

باب

فتح مصر و برقة

كان عمرو بن العاص شديد التطلع الى مصر راغباً في فتحها لانه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة اهلها وسعة أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم عمر

ابن الخطاب الجابية فى سنة (١٨) اختلى به وفاتحه بما فى نفسه وهوّن عليه أمر مصر ورغب اليه أن يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه فى الامر لان جيوشه متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس تكافح دوله الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهّز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عكّ وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر وسيأتى الكلام على هذا فى سيرة عمرو ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم وتقدم الى القواصر ولا يدافع الا دفاعاً حفيفاً ثم الى بلبيس ثم أتى أم دنين ثم مصر وأطاعليه الفتح فاستمد عمر فأمده باربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده باربعة آلاف آخرين وكتب اليه انى قد أمددتك باربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف . الزبير بن العوام . والمقداد ابن الاسود . وعبادة بن الصامت . ومسلمة بن مخلد . واعلم ان معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر الفاً من قله

كان القبط فى مصر يكرهون سيادة الروم ويودّون التخلص منها ولو لسيادة المسلمين فلما لقى عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شئ معلوم وعهد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندريه وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويله ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه فى البلاد فأخذ فى تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتمهيد أسباب الراحة والامن بين أهلها وما زال واليا عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد رأينا ان نرجئ تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو الامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرصها الشهيرة بنغازي مصالحه اهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب . اما بعد انا قد بلغنا اطرابلس وبينها وبين افريقيا [1] تسعة ايام فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لنا في غزوها فعل فنهاه عمر فولى على برقة عقبة بن نافع الفهري وعاد ورجع كما ذكرنا لك في سيرته ببيان أطول ان شاء الله

انتهى ما أردنا ايراده من أخبار الفتح في خلافة عمر (رض)

﴿ باب ﴾

تعبية الجيوش و براعة القواد

وديوان الجند

وعدنا فيما سبق أن نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب و براعة قواده وتفننهم في أساليب الحرب ووفاءً بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان أصول التجنيد وديوان الجيش على عهده فنقول

---

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر ان الحدود التي سموا الاقليم كانت بهذا الاسم تغير من حين لحين تبعاً لكل سلم الحرب

اعلم انّ العرب أمة حربية قلّ أن يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والاقدام والتعوّد على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلّم فنون الحرب وأتت لاءهم للقتال وحبهم للغارة الى تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الا انه كانت تنقصهم الحامعة والعدة أي آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضا ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم في الحضارة وعراقتهم في الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس في واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمعازل لدقتها وسذاجة صنعها ولما جاء الاسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا ان دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك ان حضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لمّا دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا في قتال جنود الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوّة رائدهم في كل مكان

فمن ذلك انهم كانوا لا يقتحمون جبداً ولا يمعنون في داخل البلاد ما لم يحملوا وراءهم رداءً أي مدداً يحمي ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدوّ من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردءهم يزيد بن أبي سفيان وعند مسير الجيش الى اصطخر لاقاد العلاء حيث قامت المسالح من البصرة الى الاهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس

طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لا يحاصرون مدينة ما لم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت في فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين حمل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبي سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى حمل

ومنها انهم كانوا يبدأون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية كي اذا أصابهم هزيمة تكون حزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم كما رأيت ذلك في عملهم باليرموك والقادسية وكانوا يجتهدون أن يحملوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب في قلوب جيوشه لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم ما دون في تاريخ الحروب الاسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر انما تأتى عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخصد شوكتهم واضعاف قوتهم في هاتين الواقعتين

ومنها براعتهم في اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو كما صنع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق حيث رتب المسالح من أوله الى آخره بحيث ينظر بعضها الى بعض ويمد بعضها بعضاً ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد في فتح دمشق واستعمال التأني والحيلة في الحرب توصلا للنجح كما صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش هرقل بحجة انه رسول من قبل المسلمين ليقف من حال جيشه على ما لم يقف عليه بواسطة الرسل

وكما صنع عبادة بن الصامت في فتح اللاذقية باظهاره القفول عنها وحفره الاسراب لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشيء من ذلك فأدرت عليه الجنود من جهتين من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة من ذكر في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فاسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل وبينما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر الكبير ومطمة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك في اجتماع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما تيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق المواصلات بين تلك الجيوش وبين الرِّدْء الذي هو جيش يزيد بن أبي سفيان

هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في عصور أحبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم في أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لا سيما الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بُعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد في الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على انه من أعاظم قواد الجيوش في العالم هذا فضلاً عما كان يوصي به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المعلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم في المهالك والتريث في الحرب والتبصر في أمور القتال الى غير ذلك مما سر بيانه في هذا الكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

وأما تعبية العرب للجيوش في إبان الفتح الذي مر ذكره في هذا الكتاب فقد بلغ الغاية في الترتيب وحسن النظام والانتظام ونحن نذكر لك هنا ما لم يسبق معنا ذكره في هذا الكتاب من تعبيتهم للجيوش في وقائعهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومهما تنظر لك من رتبتهم في فنون الحرب ومكانهم من البصيرة في تعبية الجيوش التي نشرها من كل الوجوه تعبية الجيوش في هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء (المدد) والرحل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو فصاروا في الاسلام ينصفون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» وكان الامراء والقواد يتناوبون في الحرب فمنهم الامير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبية كامير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الالوية الآن) ويليهم حملة ألويتهم (الميرالايات الآن) ويليهم امراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء ومن دونهم الاعشار (الخفراء) ومن وراء ذلك مراكز قيادته ومصالحه عن هذا فقد كان يكون مع الجيش لواء لدى يرتاد الموضع المناسب فيقف عنده حول الجيش والقاضي وأمير الاقباض (أي ما يسمى اليوم حضرة المغانم وتسمية الفيء والرحمان

والكاتب والاطباء لمداواة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تعبية الجيوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه انّ خالد ابن الوليد عبّى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعبّ العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وميمنتها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عديّ على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش وأما من كان من غير قريش فمنهم ذو الكلاع الحميريّ والسمط بن الاسود الكنديّ وصرار بن الازور الاسديّ وحارثة بن عبد الله الأشجعيّ واضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم حذاً بالاختصار وكان القاصي أبو الدرداء والقاصّ [1] أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قبات أشيم الكناني وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود وكان القارئ المقداد بن عمرو وكان من السنة أن تقرأ سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك وأما على القادسية فربما كانت أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبريّ انّ سعد بن أبي وقاص قدّر

(١) في الاصل ناقص من يأتي بعضه ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى الصفوف ويأتيه باخبارهم

الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمّر أمراء الاجناد وعرّف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أزمان النبيّ صلى الله عليه وسلم: قال الطبرى وكذلك كانت الى ان فرض العطاء وأمّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشّر الناس وأمّر على الاعشار رجالا من الناس ولهم وسائل فى الاسلام وولّى الحرب رجالا فولّى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورَجلها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فاما أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبد الله بن قتادة بن الحَوِيّة من ملوك هَجَر فقدّمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب واستعمل على الميمنة عبد الله بن المُعتّم واستعمل على الميسرة شُرَحبيل بن السمط الكنديّ وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره فى ذلك فى سيرة أبى بكر) وجعل حليفته خالد بن عُرْفطة وجعل عاصم بن عامر التميميّ ثم العمرىّ على الساقة وسوّاد بن مالك التميميّ على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المحردة وعلى الرحل حمّال بن مالك الاسديّ وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الخثعمى فكان أمراء التعبية يلون الامير (أي بعده فى المرتبة) والدين يلون أمراء التعبية أمراء الاعشار والدين يلون أمراء الاعشار أصحاب الرايات والدين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤس القبائل قال الطبرىّ وبعث عمر الاطبة [1] وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي دا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم [2] ورائدهم سلمان الفارسيّ والترجمان هلال الهَجَريّ والكاتب زياد بن أبى سفيان

---

(١) جمع طبب وهو جمع قلة وطباب لان الاطباء يبعث قليلون فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلا لمداواة جرحى الحرب (٢) داعيتهم اى الذي يدعو لى دينهم وسلم العدوّ مطالبهم ورائدهم الذي يرتاد لهم مواضع النزول

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وما نحال ان تعبية جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين وانما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قد ساوى مع ذلك فان العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق[1] والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا الى استعمالها فى حروبهم معهم كما رأيت ذلك فى الكلام على حصار دمشق وبالطبع كما انهم استعملوا أمثال هذه الآلات وقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجيد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وانما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التى فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ فى قلوب الأمم كما رأيت ذلك فى أخبار الفتح يضاف اليه علم أمير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين وتعزيره جانب الملك بسد الثغور وإعداد المرابطة واقامة المسالح فى الاطراف الى نأى من قبلها الخطر وأمره للعمال بادرار أرزاق الجند ومواصلته بالاخبار وشحن الاماكن المخوفة بالجنود واقامة الحرس على المناظير التي يوقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التى يقبل منها العدو. وبالجملة صرفه العناية فى كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك فى هذا الكتاب. ويضاف اليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالتعميم الأخروى لدى كان يحبب اليهم الموت فى ميادين الحرب ويسهل السهادة بين صفوف الاعداء وصبرهم على المكاره وتحاملهم لشظف العيش

(١) حمل يرمى في أشوطة مؤخرها لدغة والانسان كما فى القاموس

ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم بجنود الاعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس

كل هذه من الاسباب التى رجحت جانب المسلمين على جانب الاعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والدين وفر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك مما قاله عمر للهرمزان وهو . انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا . وحسبك فى مهاجمة الأمة العربية لدولتي الفرس والروم وإقدامهم على التغلغل في أحشاء المملكتين القديمتين فى آن واحد ومهاتهم التي حامرت النفوس دليلا تؤيد قول عمر بن الخطاب (رض) وشاهدا يشهد بفضل الاسلام الذى جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة الى ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع هذا وأما أصول الجند فى عهد عمر (رض) وأعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وانما نحتزئ عنه بما يأتى

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الاسلام الا انه من فروض الكفاية الى اداء قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة فى التجنيد فى الاسلام كان أبو بكر وعمر يستمران الناس للجهاد فمن أجاب كان حسبه له حظ فى الفيء والغنائم واستمر ذلك فى ولده الى ما شاء الله ولا نؤخذ من هذا أن الجند يه على هذا الوجه جند اختيارية بل هي باعتبار كونها فرضا اجبارية والحقيقة ان يجاب المسلمون عن هذا الفرض اجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوى بين الناس فى قسمة الفيء ويضرب في المغانم للفارس سهم لأنه أسهم سهما لفرسه وسهما له وثار جل جندهم ولا يفضل الخيل

بعضها على بعض وبقى الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر (رض) أى الى سنة (١٥) حيث دوّن عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ فى قسمة الفيء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبرى ان عمر لما فرض العطاء فرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى ان أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلثة لاف ثلثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبى بكر ومن ولى الايام قبل القادسية (أى الحروب التى كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لاهل البلاء (أى الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً وكانت هذه الطبقات هى الاصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض لهؤلاء الروداف على درجاتهم للمئتى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوّى كل طبقة في العطاء قويّهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجند من الخمسمائة الى المائتين وجعل للصبيان مائة وعلى هذا الترتيب ضبطت اعطيات الجند فى ديوان الجيش وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) الديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضى الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والاحوال كما سترى بعد. وأمّا المعائم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجاره

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوّى بين الجنود الاعاجم من الفرس والروم الذين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم فى طبقته باعتبار السابقة أيضاً بل ربما يميّز بعضهم أحياناً فى العطاء تأليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه الفارسى وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك فى خبر فتح تستر والسوس

وكانت أصول اعطاء العطاء لاهله على ما فى رواية ابن جرير الطبرى هكذا يدفع العطاء الى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادى العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله فى دورهم ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفيء وحكمه سيأتى فى باب آثاره فى الخلافة ان شاء الله

باب

(علائق عمر مع الملوك)

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفى رضى الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد فى بلاده وتدوح ملكه وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أيام عمر (رض) فتح الشام والجزيرة وحرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الأول الذى انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثانى المعروف بهرقل قسطنطين لان هرقل الاول توفى سنة (٦٤١م) الموافقة سنة (٢١هـ) وتولى الملك ابنه المذكور فى هذه السنة أى قبل وفاة عمر (رض) بستين وسواء كان حصل التوادد والمكاتبة مع هرقل الاول أو الثانى فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحسنة يومئذ بين الفريقين ان كانت تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة

وان أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذه في نظير ها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر وردّه الى بيت المال هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال وأما الطبري فذكر ان امّ كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية الطبري بتصرف واختصار

قالوا وترك ملك لروم العزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله. فكتب اليه أحبب الناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها. الى أن قال بعد ان أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما. وبعثت امّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب واحماش من احماش النساء ودسته الى البريد فأتاها به وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقداً فاخر فلما انتهى به البريد الى عمر أمره بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لام كلثوم. فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر برده الى بيت المال وزاد على امّ كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في عصور الكلام على عمر والمسلمين في الحرمان عمر ترك غرر البحر فترك ملك لروم غروه وكاتبه وسأله وهو دليل على رهبة دولة الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل في مسألته خيرة من مباراته فعمل وكان من العالمين

باب

(أهم الاحداث فى عصره)

أهم الاحداث فى خلافة عمر رضى الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة عاما طاعون عمواس فاختلف فى سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبرى انه ظهر فى العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكا ذريعا ومات به فى الشام عدة من اعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبى سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال . أيها الناس ان هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه فى الجبال ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا فى الجبال ورفعه الله عنهم

وروى الطبري عن ابن عباس أن عمر خرج فى تلك السنة عاريا وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ سَرْغ وافاه أمراء الاجناد فى الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم فى الرجوع فمنهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالقدوم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفِراراً من قدر الله قال نعم فرارا من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان (ضفتان) احداهما خَصِبة والاخرى جَدِبة أليس يرعى من رعى الخصبة بقدر الله ويرعى من رعى الجدبة بقدر الله ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم جاء بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفا عن الناس لم يشهدهم بالامس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندى من هذا علم فقال عمر فانت عندنا الامين المصدق فماذا عندك قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء بارض فلا تقدموا عليه واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه) فقال عمر فقمنا لنصدر فدعا ابا عبيدة فاستخلفه على الناس فاصدرهم وقال ان الطاعون بلغ عمواصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وبدا بالثغور واستعمل بدل من مات من العمال كما سترى ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هي المرة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

واعلم ان طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وافنى منهم اكثر من عشرين الفا وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي اصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصا اذ كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب الى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لاسيما اذا أضفنا الى هذا ملل القوم من الحرب واحلادهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وأما عام الرمادة فسمي بذلك لريح كانت تسفي ترابا كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الصرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى ان لا يأكل سمنا ولا عسلا حتى يحيي الناس ويكون وإياهم

---

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحي المعروف بالكورنتينا

سواء الحجاز والجدب وحمل إليه الميرة حتى مرهرطمة فحملت الزيت ومما يحكى عنها ومنها (١) من ابن فاشتراها غلام أمير المؤمنين وهو مائة أن عمر قال يا أمير المؤمنين فداك الله عيرك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما فقال عمر تصدق بهما فانى أكره أن آكل اسرافا وقال كيف يهنى شأن الرعية اذا لم يهنى ما أصابهم وكتب عمر الى أمراء الامصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام الى المدينة وبعث أمير الشام بأربعمائة راحلة عليها الطعام وقالوا انه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لان عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذى توفى به أبو عبيدة بن الجراح ويدلك على هذا ارسال عمرو بن العاص الطعام من مصر وانما كان فتح مصر بعد الطاعون اذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذى دعا عمرو بن العاص لاحتفار الترعة الموصلة بين النيل وبحر القلزم انما هو عام الرمادة وقال بعضهم ومنهم ابن الاثير ان عمر أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وانما أرسل الطعام فى البر ثم استأذن عمر بحفر الترعة ووصل بين النيل وبين بحر القلزم احتياطا مما مثل ذلك الحادث وتقريبا للمسافة بين المدينة وبين مصر وسنستقصى الخبر عن ذلك فى سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعا عمه العباس رضى الله عنهما وقد رحمها الله على الناس وأرسل عليهم من سماء رحمته السحاب الثقال فسقت الارض وأنعشت النفوس وانفرجت الأزمة ولحديث

---

(١) العكة القربة الصغيرة والوطب سقاء اللبن أى وعاؤه

الاستقاء كلام طويل من الملل لا يحب الخوض فيه فليرجع اليه من شاء في كتب الحديث

باب
﴿ آثاره في الحضارة ﴾

(كتابة التاريخ الهجري)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا واستمر ذلك في الاسلام الى مضي سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أي الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد اذ انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال في الحكومة الاسلامية فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من أي يوم نكتب التاريخ فأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بان يجعل التاريخ من السنة التي هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

﴿ تدوين الدواوين وفرض العطاء ﴾

من البديهي ان حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان رؤكانت دولة الاسلام في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر في مبادئ الطهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التي كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء [1] وأما المغانم والفيء فكانت قليلة لم

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفيء في الاسلام ووجوه صرفه التي أباحها

صوح أعاسر الى بعثتها المدينة الى صرف الصناعة في رتب الشؤون الادارية على أصول الدول المتمدينة ومنها كفارس والروم واذا كانت الصناعة مصروفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون في الفتح وانتشروا

للكتاب الكريم وزيادة في الفائدة نشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومهما تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا وأشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين . الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا وهي ليست كالمكس من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمي الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف اما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاة الصدقة) يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم وللغارمين وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي اساء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو أمة أو روحة أو حدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم في اصلاح طرق المسلمين في كلام طويل يرجع اليه من شاء في كتاب الخراج وانما نقول هنا ان الأمة الاسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ولم يجد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة العاملة الآن وأي شريعة في العالم تقضي على الامة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها واعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأي شريعه في العالم تأخذ من الاغنياء قسماً من مالهم لتشتري به الارقاء وتجعلهم أحراراً سعداء اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والاخاء ولكن أضاعها أهلها فخسروا وكانوا من النادمين فانا لله وانا اليه راجعون

في الكتاب وكثرت موارد الدولة وتشعبت مصارفها في العطاء والنفقة وأمر الناس بتسجيلها ولا أدري هل أمر بها مستحدثا أو توسيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الأعطيا وترتيبها على أصولها ثابتة وقيدها في ديوان خاص بدعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب قسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا وقال عثمان . أرى مالا كثيرا يسع الناس . وان لم نحصه حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر (ينبسط أو يلتبس) . فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا (١) فدون ديوانا وجند جندا . فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نسابة قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بعد ذلك فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديوانا

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية وسببه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبد الملك بن مروان بلغه

---

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصف من الخلق على حدة اه والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها حد يقصدون أرافهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الاردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

عن أحد كتاب سلام وأمر أن يعاقب ويشهر على البعير فلما أراد أن يفعل به ذلك قال له أنا أدلك على صناعة تخراج الأردن سنة فعل ذلك فلما أخرج الأردن لم يخرج منه حتى فرغ من عمله وأتى به عبد الملك بن مروان فقد عاسر حوض كانه فعرض عليه ذلك فعمله وخرج من عنده كتيبا فاتبعه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا البيعة من غير هذه الصناعة فقد خطأها الله عنكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله له الى العربية فوصالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زاذان فروخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مرداذان شاه بن زاذان مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة مترددة في سيرة الحجاج ان شاء الله

وأنت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تحتاج في جسمها فتدبير حركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتاب العربية عن لغتهم مع ما في هذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب وانما دعاهم الى تسليم الدواوين الى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مراقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران اذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا الامر كما لم يروا مانعا في الدين يمنعهم من مسايرات الأمم في أصول الحضارة والمدنية وأحد العلم النافع ولو عن مشركي الفرس ومن البلاء ان ألصق بعض الفقهاء بعد كل شيء من أمور ما الدنيوية بالدين وحرم على الأمة العمل بأي شيء مما دام

لم يصح نصبة لسلامته ولم يحلا ولو كان الدين يضيق على هذه الامة ان تجد الذي تجده ولات الفتوحات لما قد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حالة الدولة في عصره ومن وضع التاريخ والدواوين وترتيب الجيوش واعداد المتحاربة نحو ذلك واذا قيل ان عمر رضي الله عنه مجتهد له ان يفعل ما يرى فيه المصلحة وعلى والأمة ان تعمل فكيف ساغ مثل الحجاج بن يوسف أن يبدل أمرا اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعا لا ينبغي لاحد سواهم التصرف فيه والعدول عنه .

اللهم ان طبيعة الاجتماع تقضي بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقي في مراقي الكمال وشأن الامم هذا شأن الأفراد في احراز العلم بالمسابقة والاكتساب ومعاذ الله أن يرضى الاسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب واعاتوهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شيء بصبغة الدين جعلنا تحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد ان الأخذ بأي سبب نافع من أسباب المدنية التي نتوصل بها الى مسابقة الأمم والغلبة على الدول ربيع عن صراط الدين حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الامر الذي يدعونا الدين اليه ويحثنا عليه وأقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله

تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوة الدمار لتعلل الفساد في جسم الفرق البحرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها في جانب نظام الجند الاوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر حديد مبني على الاصول العلمية والاختبارات الصحيحة فخشي السلطان ان هو لم يأخذ باصول الجندية

المدنية وبارتقاب لجيوش النطمة جيرانها من الدول الاوربية أن تكتسح
هذه الدول عاصمة السلطنة اذ ظهرت قبله بوادر الخطر وعلما باحتلال تالبون لمصر
وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية وروع أهالي الموره الثورة فعزم عزما
أكيدا على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربية في البحرية
والعسكرية والغاء الجندية الينجرية ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر
مع جنود الينجرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير
الدولة العثمانية للزوال وهو شهم وعلو نفس وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من
الملوك الا فيما ندر فمعظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداء عن حياتهم الشخصية
ولا جرم فان لكثير من أفراد هذه الاسرة العثمانية كثيرا من الايادي البيضاء
على الامة وكل امرئ يذكر فضله وأجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال
لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان
أول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله أفندي شيخ الاسلام في عصره
فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الصغائن بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج ومازالوا
يكافحونه مع الينيجرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك
أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود كان
قصاراها إهراق سيول من الدماء أنهى بعدها السلطان محمود رحمه الله بماضي عزيمته
إرادته في الاصلاح وقضى على نظام الينيجرية وأهلها شر قضاء وتالله لو لم
يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن اذ هي الآن على ضخامة قوتها
وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب
قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الاوربية كثيرا من ممالكها الاوربية
والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لاجرم أنها كانت ذهبت لاقدر الله مع الذاهبين وأصبحت مثلا في الغابرين ولو مثل ساعتئذ عطاء الله أفدي هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشي المسلمين لاحابك بالبراءة الى الله من ذنبه واستغفر الى ربه

على ان الدوله العثمانيـة حرسها الله قد قدّت هذه القيود الثقال وقبلت من الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ماحملها تدخل في مصاف الدول الاوربية وان كانت الأمة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الاسلامية كدوله مراكش مثلا فانها لم تزل الى الآن على ما كانت عليه منذ مئات من السنين فليس لديها نظام للحندية ولا للادارة ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والاصول الحربية وتكسب الأمة ملكات العلم بحاجات العصر وترشد الدوله الى أسباب المنعة والقوّة والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الأمة والمانع من ترقي المسلمين ولو كشفت الأمة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمـة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتحرصات الجاهلين فأخـذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الاسـلام حالا وأعظمهن قوّة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تحملهم الدول الاوربيـة في الممالك الاخرى ذريعـة لمد يدها الى الشؤون الداخلية والتعرض بالاذى للدول الاسلامية وتالله ان أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سائساً عظيم النفس عالي الهمة محباً للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط حديد ويصرف همتـه في إعزاز شأن الملك لكانت أمـة عزيزة الجانب منيعة الحمى والكان لها حبش منظم يزيد عدده عن النصف مليون يحمي ديارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل

هذا وأما فرض العطاء فان عمر أمر بان يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم باهل السابقة والدين حصروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين والنساء والاطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الاحاديث والتاريخ وقد أشرنا اليه في باب ديوان الجيش وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال عُدَّةً لكون إن كان فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي بل أُعدّ لهم ما أمر بها الله ورسوله . طاعةَ لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا الى ما ترون فاذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم

على ان العطاء على ذلك الوجه لم يستمر الا مدة الخلفاء الراشدين ثم لما تغير حال الدول وانتشر الاسلام وكثر المسلمون حصّ الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفيء كله أي حصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفيء يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقي وبالخمس لانفاقه في وجوه المصالح العامة لان العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار انه فيء أخذوه بسيوفهم اذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لافساد الاموال وادخارها في بيت المال لانفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها الدول وتقتضيها أنبه الملك هذا تقطع النظر عما خصص منها الانفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لان هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفة وشرَه وامساك وبذل

وأمّا الكلام على الفيء الذى هو أصل المطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وما هو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس الى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط فى كتب الفقه وكتب التفسير المطوّله فليرجع اليه من أحب

وانما زيادة فى الفائدة نقول هنا إنّ الفيء هو كل ما صالح عليه العدوّ بعد وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس الى الامام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين فى الثغور والقائمين على حراسة الدولة الا الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد

واعلم انّ الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفيء أى وجوه الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع ما نصرف الآن (بالبودجه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنويه للحكومة فقد روى الطبرىّ فى تاريخه عن ابن عباس قال لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فاحصروا لى علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر وعليّ على ان يأخذوا من قِبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله من أهل القُرَى) يعنى من الخمس (فللهِ وللرسول) من الله الامر وعلى الرسول القَسْم (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية ثم فسروا ذلك بالآية التى تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الاربعة الاخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن يدئ به و يُثنّى ويُلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المعنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى (اعلموا انما غنمتم من شئ فانّ لله خمسه) فقسم الاخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعليّ وعمل به المسلمون بعدُ هذا ما ذكره الطبرى وانما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين

وأما من يليهم الى اواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى مناحى الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت هذا مما تقدم وربما بدأ هذا التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى فى قصته مع أبي در فيما يلي من هذا الكتاب

ترتيب العمال

(وتقسيم الولايات)

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام وكان الامراء من علمنا مما تقدم فى محله بجعل امارة ما يفتح من الشام الى أبى عبيدة وجعل امارة الحرب في كل جهة لأمير مخصوص فجعل إمارة الحرب فى دمشق ليزيد بن أبى سفيان وامارة الأردن لشرحبيل بن حسنة وإمارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه الآن الامارة العامة كانت لابى عبيدة فالمحاربة والصلح وكل ما يتعلق بامور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أتى أبا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف اليه جند قنسرين ثم أضيف الى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولى جند قنسرين بعد وفاة أبى عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبى سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الاردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه الى قسمين أحدهما حاضرته ايلياء والآخر حاضرته الرملة وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية منها جند يقصدون اراءهم منها جنداً فبدلاً من ان يقولوا ولاية فلسطين مثلاً يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة حمص الكورة وروى انه ضرب على جند سنة (١٧هـ) ان عمر لما جاء الشام فى هذه السنة رتب الشواتى والصوائف

(أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وسد فروج الشام ومسالحها [1] وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة (أي على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق او غيرها)

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الاردن معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مجرز وعلى الاهراء [2] عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتبه عمر (رض) الى عهد العباسيين

وذكر في فتوح البلدان أن معاوية كتب الى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [3] واتخاذ المواقيد لها

---

(١) تقدم معنى المسالح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص

(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال الفيء

(٣) المناظر وتسمى لهذا العهد المناظير هي قلاع مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يعارف بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عند مايرون اقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المنار الذي يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسايحة في زمن قابل فيسرعون لامداد الجهة التي أقبل منها العدو ولم تزل آثارها قائمة الى الآن في كثير من انحاء سوريه وقد شهدت بعض المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماه الى ماوق ومعظم الموجود من بناها الى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجركسية التي سيدوها في أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناء عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الاشعرى وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عماله عامل هذا القسم أى قسم الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وماسبذان وقرقيسياء الى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس العربية وكانت تقسم الى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة وكانت مسالحها وثغورها مما يلي الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلى فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح وتجاوزها حدود البلاد الاسلامية بالطبع

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاص يقصي بين الناس كما رأيت فى باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الاقباض يحصي الغنائم فاذا فتحت البلاد وتقررت الجبايه كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض فى حرب فارس السائب بن الاقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرن ثم غيره وغيره وقدمر بيان ذلك فى غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى ان ذلك الترتيب هو غاية فى اصابة العرض ومد البطر فى تنظيم شؤون الدوله بالنسبة لذلك العصر وربما نحا عمر (رض) فى بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئ سادئا ثم ترقى بترقي المسلمين وتقدمهم فى الفتح فى خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب فى سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك الى ان جاء الاسلام ومضى صدرا من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البغلية وهى درهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (١٨ هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وجعلها في أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزي في النقود الاسلامية الا ان عمر (رض) لم يضرب الدينار وانما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان . وأما نسبة الدرهم الى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك في سيرة عبد الملك بن مروان ان شاء الله وأما نسبة الدرهم والدينار الى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شيء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً الى الوقوف على نسبة حقيقية لاجور العمال بالدرهم في صدر الاسلام ليقاس عليها مثلها في هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثلها في هذا العصر وكل ما قبل من هذا القبيل اذا لم يبن على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شيء لان الدرهم من الفضة دبي القيمة الآن ادرع ما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يساوي ثمانية عشر فرنكاً و ١٦ فرنكاً وهذه القيمة ربما كانت في بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفي بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمال الى الثمانية من ذوي المهن لا ما يسمونه العامل البسيط

فالدرهم والدينار لا يصح ان يكون قيمتهما الاعتبارية في صدر الاسلام كقيمتهما الآن بل أعلى وربما كان لدينار أجرة عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم الآن من تحقيق عمل الناس في ذلك الوقت وعسانا سوفق الى الوقوف على تفصيله بأتم من هذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الاسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان ان شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به الآن فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله على ما يقال من وضع الفرس والذي رتبه دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما يأتي على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل

ثم استعمل في الاسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا عن أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة وان يكتب المهم من هذه الاخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاة وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الاخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا الى الكلام على دولة الخلفاء من بني امية وبني العباس ان شاء الله

وروى المؤرخون ان أول من وضع البريد في الاسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل معاوية اذ قد جاء ذكره كثيرا في سيرته ومنه ما مر في فصل علائقه مع الملوك عند ما قال عن الرسول الذي أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم انه بريد المسلمين وفي مناقب عمر للامام ابن الجوزي أن عمر لما أنفذ نصر بن حجاج من المدينة الى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع الى المدينة وكتب عمر الى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه ألا ان بريد المسلمين يريدان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب وكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه في الكتب الى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أنّ أول واضع للبريد في الاسلام هو عمر ابن الخطاب الا انه ربما لم يكن على الوجه الذى كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه فى عصر الامويين والعباسيين وانما هو بدئ ساذج ثم ترقى بترقى الزمان

﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصّرت البصرة سنة (١٥ هـ) عن يد عتبة بن غزوان بامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان فى مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العيث ومصّرت الكوفة سنة (١٧ هـ) عن يد سعد بن أبى وقاص وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق فى الكوفة والبصرة فارسل سعد الى عمر نفراً يستأذنونه فى البنيان باللبن (الطوب) فقال اعملوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وكتب الى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعا وطول أربعين ذراعا والازقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه الا انه لما ازدحمت السكان فى المدينتين أخلّوا بذلك الاصل ولم يراعوا حاله التنظيم فتقدموا فى الماء فى الشوارع والساحات حتى اذا زحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التى وضعها لهم عمر رضى الله عنه وانما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لاصول التأنق فى البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد فى مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع اليه من شاء

(التوسعة فى المسجدين)

فى سنة (١٧ هـ) حج عمر (رض) فرأى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبوا ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التي على الطريق بين مكة والمدينة في ان يبنوا منازل في هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم انّ ابن السبيل أحق بالظل والماء . وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه

(حملة مآثره)

ومن مآثره ان أقام دور الضيافات وأدرّ عليها الارزاق عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعني به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة في الطريق ما يصلح من يقطع به وفي بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضا الطريق بين الشام والحجاز (ومنها) انه مرّ يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين فعرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بحفر الترعة التي وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر في عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما ستراه تفصيل الخبر عنها في سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمي (ومنها) ما تقدم ذكره أيضا من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا في سيرة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من ايجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام حراه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما أتى على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله في غير هذا الباب ان شاء الله

باب

(أخلاقه ومناقبه)

سياسته وعدله

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الامة ولما جاء الاسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ووقوفهم على حقائق الدين وإشراب قلوبهم حب الايمان والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا يترعه الا تمادي الزمان لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضي الله عنه الا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من ان يحذو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبي بكر خوف الرجوع الى الثورة والخروج عن حدود الاسلام وقيود الاخوة والرجوع الى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديدا تطلعه فراس أولئك الاقوام بمزيد الشدة والارهاب لما كان يتوقعه من حصول الدس والدسائس ولو لم يقابل شدته اعراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الدواء في محله والعقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة كما انه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولخيف من حصول فتن كبرى تكسر شوكة الاسلام كما حصل ذلك عند وفاته رضي الله عنه الا انه لم يأت عن تلك الدس من الضرر

مايوازى الضرر الذى كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك فى أوائل خلافة عمر (رض) وانما خف ضرر تلك الفتن بعد لان الاسلام كان ملأ اكناف الارض والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بامور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذى استحال ان تدك أساسه عواصف الفتن فى خلافة عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم وانما كان الفصل فى هذا لعمر بن الخطاب الذى أخذ على الأمة سبيل النزوع الى الجاهلية الأولى ودفعها فى غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها وربّاها على الخضوع لأولى الامر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات وهذا منتهى ما توصف به رجال السياسة من الفصل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول وحسب عمر انه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية ولا صوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل انّ علمه بمن رأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لانه جعل عليهم عيونا حيثما كانوا ينقلون اليه أخبارهم فى معاملة الرعية حتى كانت أحبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البريد صباح مساء [1] وناوبح العامل الذى تندر منه نادرة أذى لاحد من

---

(١) هكذا حال الدول عند مابدأ فى سلم الصعود ومتى استت الى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأسا على عقب فجعل الامراء العيون على الرعية لا على العمال يكونوا عونا لا ولا تعلى الرعية كما هى الحال الآن في ممالك الاسلام حيث لا يستطيع أحد ان يشكو ظلم العمال وسوء الاحوال حتى أوعز الولاة في الصلوات الناس سوء العذاب وحرموا العمال راتبة أمن الدول الاسلامية فى الشرق والغرب واحدث الملك وقوى عليها العدو وانوح من ندرته ما تشكوى من هذا الحصر ما الحال برجه فى طبقات السحقة الذين هم من الارض وهم سخط لا ملوكية هذا العهد بسائد على الممالك الاسلامية ترمى اليه من رصده بحرص المشترين لحكوماته

الرعية أو يهفو هفوة فى شأن من الشؤون فانه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأديب من حيث لا يشعر فلهذا ملأت رهبته القلوب وحاف منه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عمر بن مرة قال لقى رجلا من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفى ذلك طلم . قال لا . قال فزادنى الله فى صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير انه سمع عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

وأخرج ابن جرير فى تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نفرا من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه قد أحشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك . والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقا (خوفا) منهم منى

وأخرج ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر فاين المخرج وقام يبكى يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك والظاهر ان عمر رضى الله عنه انما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه باخلاقهم الحافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تحصنهم لامم وأمصر يسلقون بعضا الاستعباد كاليهود واضد شافهى مرة أحد علماء لمن كلامه من هذا السبيل علمت منه مرة ما في نظر العالم المصرى من لامم وكيف تلا عم سريعا في نصرهم الى هذا الحد فانا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا ما رواه الحافظ ابن عساكر عن الاصمعي قال - كلم الناس عبد الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب في ان يلين لهم فانه قد أحاف بهم حتى أحاف الانكار في خدورهن: فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال يا عبد الرحمن اني لا أجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لاخذوا ثوبي من عاتقي والذي زاد عمر هيبة في النفوس انه كان لا يراعي في الحق كبيراً ولا يمالئ شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضي به الصرورة السياسية وهذا فيما لا يمس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الايهم ملك غسان فانه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره أعرابي من بني فزارة فصربه على وجهه فشكاه الاعرابي الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له اما ان ترضيه واما ان يصربك كما صربته فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة قال لا قد جمع بينكما الاسلام فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفرّ بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية وافادتهم حتى من الملوك لم يسلمها أحد غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بدائع أخباره في انصاف افراد الرعية من الولاة ما نقله في حسن المحاضرة عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال عذت معاذاً قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه عليه فقدم فقال عمر أين المصري حد السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الاكرمين ثم قال للمصري ضعه على صلعة عمرو قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو متى كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني (يعني) المصري

هذا منتهى الانصاف للرعية والعدل بين طبقات الامة ومثله علم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا أمير الا دون الشريعة حتى نفسه رضي الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه امام الحق والعدل الا كواحد من الناس فقد جاء في كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر هذا أول جور حرت في حكمك ولكن أجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى أبي وأنكر عمر فقال زيد لأبي أعف لامير المؤمنين عن اليمين وما كنت لاسألها لاحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . انه لاحلم أحب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه ومن يعمل بالعفو فيما بين طرفيه تأتيه العافية ومن يصغ الناس من نفسه يعطى الظفر في أمره والدل في الطاعة أقرب الى البر من التعرر بالمعصية وحلا هذا فقد كان رضي الله عنه حريصا على ان لا يشكى منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الامة وتسلك طرق الخطأ أو الجور حتى لما به الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار أو جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضمائرهم من جهة سياسته فى الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ما جاء فى كنز العمال عن النعمان بن بشير انّ عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والانصار . أرأيتم لو ترخصت فى بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قوّمناك تقويم القِدْح (وهو السهم المعوج قبل ان يراش ويصل) فقال عمر . أنتم اذن أنتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد لواحد التوحى قال قال عمر (رض) وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيبا الّا عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الادمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله . وقوله يديل بين بردين أى يلبس قميصا ويحليه ويلبس غيره (وذكر) بعض المؤرخين انه خطب يوما فقال . أيها الناس من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

الّا انى لم أقف على سند لهذه الخطبة وهى ان صحت فربما تكون من قبيل الخبر الاول لا خطبة . وأنت ترى من هذه الاخبار الى أيّة درجة بلغت حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومهما تعلم انهم اعتادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيود العبودية الى ما تقيدها قوم الاصرتهم بالهلاك وسودّت عليهم لا بما كما سوّدت العرب الآن على ما ترى ملايين من المسلمين اتخذوا رؤساءهم أولياء من دون الله فعبدوا بهم الى هوّة الدمار وعبروا من آثار ما كبهم العظيم لدمار .

وفى كنز العمال عن سعيد بن سهاب الهمدانى قال عمر بن الخطاب أيتها

الرعية إنّ لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وانه ليس شيء أحبّ الى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم امام ورفقه وليس شيء أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه

(ومن سياسته) فى تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة فى الاعمال وانّ لهم ما تكنه السرائر ما جاء فى كنز العمال أيضا من حديث عُتبة بن مسعود قال. سمعت عمر بن الخطاب يقول. انّ ناساً كانوا يُؤخذون بالوحي فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانّ الوحى قد انقطع وانما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه فى سريرته. ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة. وانما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيها لهم الى انه مراقب لاعمالهم

ومع انه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة فى الاعمال فانه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد فى الامور ويرشدهم الى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم الى الاستقامة فى العمل والحزم فى الرأى فقد أخرج ابن جرير الطبرى فى تاريخه عن عمر بن مُحَاشع قال قال عمر بن الخطاب القوّة فى العمل ان لا تؤخر عمل اليوم لغد. والامانة ان لا تخالف سريرةٌ علانيةً واتقوا الله عز وجل فانما التقوى بالتوقي ومن يتّق الله يَقه.

وهكذا رضى الله عنه كان فى رعيته كالوالد الرؤف يواليهم بالنصائح ويرشدهم الى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوي والعدل والتألف والاجتماع وينهاهم عن التحزّب والتفرّق وخصوصا قريشا فانه كان لا يسام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أنّ عمر قال لناس من قريش يا معشر انكم

تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وأيم الله انّ هذا السريع في دينكم سريع في شركم سريع في ذات بينكم ولكأنّي بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأى فلان . قد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس اللهمّ ملوني وملتهم وأحسست من نفسي واحسوا مني ولا ادري بأيّنا يكون الكون وقد اعلم انّ لهم قبيلا منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله ان يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الا بعض القوّاد فربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في مثلهم بالطبع ومع شدته رضي الله عنه وقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة ويلح به كرهه للايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الاشعري وقد اشتد في العقوبة على بعضهم يهدّده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال كنت مع عمر في حج (أو عمرة) فاذا نحن براكب فقال عمر أرى هذا يطلبنا فجاء الرجل فبكى فقال ما شأنك ان كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك الا ان تكون قتلت نفساً فقتل بها وان كنت كرهت حوار قوم حولناك عنهم قال اني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وانّ أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لا تجالسوه ولا تؤاكلوه فجدت نفسي يا حدى لاث اما ان تحد سيفاً فاضرب به أنا موسى . واما ان آتيك متحولي الى الشام فانهم لا يعرفوني . واما ان الحق

بالعدوة كل معهم واشرب . فبكى عمر . قال ما يسرني انك فعلت وان لعمر كذا وكذا وانى كنت لاشرب الماس لها فى الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى أبي موسى ما صورته

سلام عليك أما بعد فان فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله انى ان علمت لاسوّدن وجهك ولأطوفن بك في الناس فان أردت ان تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس ان يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أى أركبه) واعطاه مائتى درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه باهل الذمة الذين دخلوا فى عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شئ عنهم يستدعى ذوى امانة من المسلمين الذين أقاموا فى بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبرى فى تاريخه ان عمر (رض) كتب الى أمير البصرة ان يبعث له جماعة من ذوى الرأي والبصيرة فارسل اليه وفداً فيهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فاخبروه بالسلب ولم يطمئن اليهم حتى استوثق من الاحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء فى كتاب العمال ان عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ما ألصقك بما أجد امك الجزية فى شبابك ثم صيعتك فى كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه

ومن حسن سياسته تقديره فى قوله ان لا يمسكوا لحدق العرو أكثر من أربعة أشهر وسببه كان يطوف بالمدينة على عادته وسمع امرأة من وراء بابها تقول

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرّقني أن لا خليل ألاعبهُ
فلولا حذار الله لا شيء مثله لرُحزح من هذا السرير جوانبهُ

وكتب عمر الى عماله ان لا يغيب أحد بالعزو ونعم الرأى

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألاَ لا يجلدنَّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار

ومن سياسته انه كان يحرس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من ان يدنسه بالولاية فقد اخرج ابن سعد عن عمران بن عبدالله قال قال أبيّ بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لا تستعملني قال اكره ان تدنس دينك

ومنهم من لا يستعمله حسية ان يحمله على رقاب الناس أو حشية ان تحدثه نفسه بالامارة اذا بعد عن مراقبته وهؤلاء هم سوهاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع الى الامارة ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبدالله بن عباس أن عمر أرسل اليه فقال يا بن عباس ان عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد حوت ان تكون منهم فهل لك في عمله فما رأيك في العمل قال ان أعمل حيّ تحبني بالذي في نفسك . قال وما تريد الى ذلك قال أريد ان كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت وان كنت بريئاً من هذه فعلمت بي بست من أهله وقتلت عمالك هنالك فاني اذا رأيت وطئت شيئاً عليه فقال يا بن عباس قد حسبت ان يأتي علي لدى هرات وأنت على عمالك تولهم اليمن فلا هنيئاً يكدون غيرك

انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركتكم : قال (اى ابن عباس) والله قد رأيتُ من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أي عمر) والله ما أدري أضنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بدّ من عتاب فقد قرعت لك فما رأيك قال (أى ابن عباس) أراني لا أعمل لك قال ولم . قلت ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينك قال . فأشر علىّ : قلت انّي أرى ان تستعمل صحيحا مك صحيحا لك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأدبوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع فى البلاد المفتتحة وان لا يقطعوا أرضا لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الأول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمه والعهد فى أرضيهم و يضيّقوا عليهم فى معيشتهم والامر الثانى كي لا يألف الجند الاعتمال فى الارض فى إبّان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لأمة القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كى تبقى الارض فى يد أهلها مادة تستمد منها الدوله ما يقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوّة عن الدوله الاسلامية فيما بعد ولا تجد من المال ما تكفى لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد وقد مرّ الشاهد على سياسته هذه فى غير ما محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفى منها بما تقدم دلاله على الباقى

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة باهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذا الباب وفى باب اخلاء عمر لاهل نجران وسترى في باب اخباره واقواله كيف كانت سياسة عمر مع اهل الذمة وكيف كان شديدا الحرص

على راحتهم حاثاً للعمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم وقد اورد بعض ارباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة احدهما امره لعامله في العراق بحتم رقاب اهل الذمة من الفرس بالرصاص والثاني تقدمه الى العمال ان لا يحدث النصارى في امصار المسلمين (اي الى مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ولا يرفعوا صليبا على انّ هذين الخبرين وما شابههما قد وهّن روايتها اهل الحديث وحفاظه وقالوا إنها موضوعة وقد اورد الامام الشوكاني في نيل الاوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما باللفظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حنش وهو ضعيف ويريد بحنش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ما هو الباعث لقوم الوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث أهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله اتقاكم) ام دلك شيء دس في الاخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين او الجاهلين ان يدسوا ما شاؤا في الاخبار انما العجيب ان يتقبلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه وانما جرّ ملاء التشيع ونفث روح التفرق والدس المسلمين اصول التألب والانحياز حتى بين أنفسهم انتشار امثال هذه الاحاديث والأخبار في كتب الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وبعد دعاهم الى نقلها توهم

انها قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب اهله نار شارهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية لا بايذاء الغير في دينه وحريته والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الاسلام ايذاء الدين في حريته الدينية والشخصية لامر باكراه اهل الكتاب على الاسلام كما امر باكراه مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) او عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الصرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لو صح الخبر عنه بمصر مخصوص اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها اهل حوارهم من الكتابيين شيء من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية واغراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء اهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر الى عماله بعدم احداث النصارى بيعاً في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا القصد ينبغي ان يحمل كل ما جاء من الاحاديث والاخبار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد المغايرة بين المسلمين واهل الكتاب لا سيما والجمهور الذي كان يدور في خلد الصحابة ويجيش في صدر النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال ولم يبق منه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذي بسطناه

الآجاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بان الدين الذى يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ومعاملتهم بالانصاف وعدم ايذائهم فى حال من الاحوال لهم مالمسلمين وعليهم ماعليهم لا يناقض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء الذين يصمون الامور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم انهم عما يوافق الهوى لا الحق والسلام

﴿ أخباره مع عماله ﴾

﴿ ووصاياه لهم ﴾

كان رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم وجعل أحد الصحابة وهو من من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مَسْلَمة فاصاً أى محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم فاذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا فى السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مغرٍ ويذهب ويجمع اليه الناس فى المسجد ويعاطف عليهم فى أحيائهم يسألهم عن علمهم بسيرة الامير وبأسباب الشكوى منه ومن ذلك ماذكره الطبرىّ فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش الى نهاوند فى أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألّبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ولم يشعلهم مادَهَمَ المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجرّاح بن سنان الأسدىّ فى نفر فقال عمر انّ الدليل على ماعندكم من الشر هو صمتكم فى هذا الامر وقد استعدّ لكم من استعد وأنتم لا تبعثون الله لا يبعثي ذلك من الطريق الى دياركم ودوركم (يعنى الفرس) كم فبعث عمر محمد بن مَسْلَمة والناس فى الاستعداد الاعاجم والاعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمل الذى يمحص آثار

من شكي زمان عمر [1] فقدم محمد على سعد ليطوّف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاوند فطوّف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرّض للمسئلة عنه في السر وليست المسئلة في السرّ من شأنهم اذ ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الاّ قالوا لا نعلم الاّ خيراً ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه الاّ من مالأ الحراح بن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً الى ان قال الطبري وخرج محمد به (أي بسعد) ومعهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشي اذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقرّه

ومنه تعلم كيف كان رضي الله عنه مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل في أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ربما نأتي على شيء منها في سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء الله تعالى

وكان رضي الله عنه لا يحب أن يفرّق عماله في المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القويّ والضعيف أخرج بن جرير الطبري عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

---

(١) وطيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وطيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضى الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الاوامر الى عماله تباعاً فى أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ومن ذلك انه لما وفد عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حال الدمة فى ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك فى الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الدمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو نهبى فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

وبلغه مرة ان حرقوصاً عامله على الاهواز بزل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والحمل كؤود يشق على من رامه فكتب اليه ما صورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغنى انك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم فى أمرك على رحل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركك متعة ولا عجله فتكدر دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمرى الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس فالله ان خليفة لا يعمل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يحلمه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الحنان فرضى الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبرى عن أبى عمران الجونى قال كتب عمر الى أبى موسى لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من يلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف فى الحكم وفى القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا اليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا في الحكم وذلك في القسم ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون اليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال يا أيها الناس اني والله ما أرسل عمالاً اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي رواية ويقسموا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه [1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه قال إي والذي نفس عمر بيده اذاً لأقصه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم اياكم والرشا والحكم بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار

وروى الطبري ان عمر كان يقول في عماله اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضي الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من ان يجار عليهم بأمر لا يصله

(١) يعني تمكين خصمه من الاقتصاص منه أو نقتص له منه

خبره لهذا عزم قيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال حميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم . فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب ان عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا . ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه الى أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه سالكين في الزهد والورع والعفة طريقه فمن عماله سلمان الفارسي وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار بردعته بعير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله أدركك الله عند هملك اذا هممت وعد لسانك اذا حكمت وسديدك اذا قسمت فجعل سلمان يبكي فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك فوالله ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المحزون وأرى هذه الاساودة (جمع سوادو هو المال الكثير) حولي فطروا فلم يجدوا في البيت الا دواة وركوه ومطهرة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان طهر الملبس وعليه الصوف الخام فعدل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولك الاعداء معيرمن ربك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله : فقال عمر اللهم لا تقل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه . قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً ليل وله يوم في الشهر لا يخرج الينا فقال عمر علي به فلما جمع بينه وبينهم فقال ما تنقمون منه قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول يا سعيد فقال يا أمير المؤمنين انه ليس لاهلي خادم فاعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج اليهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له يوم في الشهر لا يخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي . فقال عمر الحمد لله الذي لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا به اليكم خيراً . ثم ان عمر بعث اليه بألف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أعبانا الله عن خدمتك وقال لها ألا تدفعها الى من يأتينا وأحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صراً ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى يتيم بني فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه الى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ما كنت اليه

هكذا كان معظم عمال عمر رضي الله عنه فكيف لا يكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا حرم فالخليفة الصالح لا يختار من العمال الا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق سلوكهم فان كان الملوك ظالمين ظلم العمال وان كانوا عادلين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل فقد روى الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بني دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وعوعاؤهم تمنع سعداً الحديث ادعى الناس عليه مالم يقل وقالوا قال سعد سكن عني الصويت وبلغ عمر ذلك وان الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرحه الى الكوفة وقال أعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأتى سعد فأخبر الخبر فقال . هذا رسول أرسل لهذا الشأن وبعث ليطالع من هو فلما عرفه أرسل اليه رسولاً بان أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الاموال وأغلقه ولا تجعل على القصر بابا تمنع الناس عن دخوله وتفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت

فحلف له سعد ما قال الذي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى أتاها من المدينة فهدمه وسلم بناء السجن فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال له هلا فعلت من سعد فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه فقال عمر ان الكيل الرجال رأيناه وان لم يكن عنده عهد من صحة عمله لخرم وقال به ولم يكل

وأخبره محمد بمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال هو أصدق من روى

عليه وألقني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم ان لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا ابوابكم دون حوائج الناس. إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة ثم يشيعهم فاذا أراد أن يرجع قال اني لم أسلطكم على دما المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم [1] ولا على اعراضهم ولا على اموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء فارفعوه الي ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها [2] فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها حوّدوا القرآن (وفي رواية) وأقلوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال وفي المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن بن سعد قال . كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان ابن نَصْلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال .

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها بميسان يُسْقى في زجاج وحنتم

وأبيات يقول في حتامها

لعلّ أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المهدّم

فلما بلغ عمر قوله قال . نعم والله انه ليسوءني من لقيه فليخبره اني قد عزلته فقدم عليه رجل من قومه فاخبره بعزله فقدم على عمر وقال والله ما أحب شيأ مما قلت ولكن كنت أمرء شاعراً وحدثت فصلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت . وفي روايه عن عثمان الحرامي عن أبيه قال

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس حمره تحميرا جمعه والقوم على الامر تجمعوا الى ان قال والحمى حماهم في أرض العدو والمراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير . أما بعد فقد بلغني قولك

لعلّ أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدّم

وايم الله انه ليسوءني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصي اموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله او بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عُتْبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال حرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تحرج المال معك في هذا الوجه فصيّره في بيت المال .

وروى ان خالداً لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصي مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أحدهما واحداً وترك له الآخر وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قِبَلِ أبي عبيدة لا من قبل عمر وفي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبحائرة من أخبر فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته ويرفع عمه قَلَنْسُوَتَهُ حتى يعلمهم من أين أخذ الاشعث أمن ماله أم من اصابة أصابها (يعني من المغنم) فان زعم انها من اصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة وان زعم انها من ماله فقد اسرف واعزله على كل حال وأصمم اليك عمله . فكتب ابو عبيدة الى خالد فقدم عليهم جمع الناس وجلس ثم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجرت العشرة آلاف أم من اصابة قسم يجبه حتى كثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم اليه فقال انّ أمير المؤمنين أمرني فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال ما تقول أمن مالك أم من اصابة قال لا بل من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفحم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامةً له وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذي كان فكتب الى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لانه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبو عبيدة اني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدّاً وقد علمت انّ ذلك يروعك. ثم انّ خالداً رجع الى قنّسرين فخطب أهل عمله وودّعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك في أمري غير محمل [1] يا عمر فقال عمر من أين هذا الثري. قال من الانفال والسهمان ما راد على الستين الفاً فلك فقوّم عمر عُروضه [2] فخرجت اليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ثم قال يا خالد والله انك عليّ لكريم وانك اليّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء. ثم انّ عمر كتب الى الامصار اني لم أعزل خالداً عن سُخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويُبتلَوا به فأحببت ان يعلموا انّ الله هو الصانع وان لا يكونوا بعَرَض [3] فتنة. ويقال انه عوّضه عما أخذه منه وكتب الى الناس وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ولما أبى ان يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً وردّ أموالهم لبيت المال. وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لا بدّ أن يكون له في هذا رأي سديد ومرمى بعيد ولعلّ الحامل

(١) محمل من أحمل في الطلب أتأدوا عتدل ولم يفرط (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغي له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الاغنياء ويتعالوا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذي لا اله الا هو (قالها ثلاثا) ما من أحد الا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدهم ولكنا على مراتبنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وعناؤه (كفايته) في الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء وقسمتها على فقراء المهاجرين

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة في هذا العصر في أوروبا أن من الاغراض التي ترمي اليها جعل الاموال حقا يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك لان بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرق في ان المسلمين يعتبرون هذا الحق في ثمرة رأس المال وهي الفصول وان الاشتراكيين يعتبرونه في رأس المال نفسه وهو خطأ أداهم اليه الافراط والغلو كما شرحنا ذلك في كلمات تنبيه الافهام . وبالله لو علم اولئك الناس أن الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وان أهله ما تواكلوا يعرفون شيأ من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية

لأخذتهم الحيرة من هذا الامر وربما نبه قادتهم وزعماؤهم الى قبول الاسلام وجعله أساسا للسعادة التي ينشدونها للانام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام

﴿ كلمة في الحرية والطاعة ﴾

(أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية)

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبرا يمر على القارئ من الاخبار التاريخية المهمة مالم أرد فيه بيان مفيد لاسيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغي ان لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم وتخشع امامها قوى الكون البشرى الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة مما تخلص الانسان من الاسر وتخلصه من ضيق الحجر وحوار تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية الى سوّغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تتحرك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لاحق لآخر بحرمانه منها مالكا لأمنه لا سلطان لآخر في سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان تتعاياً كل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيا من عداه

ومما يتوهم من الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد مادام ليس لارادة النفس على ما يعلم من حالها من قيد وليس الامر كذلك اذ كما ان التفريط بالحرية طرف نازل له كذلك الافراط فيها أيضا وفي كلا الطرفين رجوع للبهيمية

وفقد لفضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسي والقيد الخارجي فاما القيد النفسي فهو إما الزاجر الديني وإما الفضيلة الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق الانسان بالبهائم ففي مطاوعة الارادة للزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا أرشد اليها وحث عليها والشرائع انما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية فالوازع الذي يرع الناس بالشريعة لا يحاول بما يرع به قهر النفوس ولا حجرا على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمرا بهواه وشهواته لا مأمورا من القانون ومهيمنا عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من الاعراق في الحرية يكاد يكون إفراطا فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة لان حب الحرية خلق تأصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الافراط لسأم يسمونه العصبية ذلك لانهم كانوا أشتاتا في التحرؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس ولا سلطة وازع يضمهم الى كلمة واحدة فكانوا يفزعون عند الحاجة الى العصبة التي تجمعهم على كلمة واحدة ضد الأخرى دفاعا عن الحورة وصد عاديا وجلبهم ومعنى في هذا الامر من ضعف النظام الاجتماعي وقصور سلطة القانون عن كبح جماح الناس وحملهم على

حريصين لانه نتيجة معالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد. ولما جاء الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم الى رايته كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » وانما أرادهم على الطاعة لأولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه سعادتهم بردهم في الحرية الى حد الوسط بلا شطط عليهم في التقييد ولا ارسال لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يراعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول أول خليفة في الاسلام وهو أبو بكر (رض) في احدى خطبه التي مرّ ذكرها في الجزء الأول « أطيعوني ما أطعت الله (في تنفيذ أوامره) فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) أعينوني على نفسي بالامر بالمعروف وإحصاري النصيحة وأعينوني على أنفسكم بالطاعة وقوله أنه لم يبلغ حق ذي حق « يعني نفسه » أن يطاع في معصية الله وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب واذ كانت البداوة أصلا في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً يصم أشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يعي عن العصبية مع استبقاء ما انطوت عليه من الاصول الديموقراطية في حالتهم الاجتماعية لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الاسلام واجتمعوا على الرضى بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحمايتها بالشريعة لا بالسيف ولعمارة أوضح مما كانت دولة فارس مستندة الى الشرع الالهي لتقوم لا دولة عسكرية

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتحل وشتان بين دوله تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث أن تبلى أو تحل وتهوي باله ولة الى حضيض الاضمحلال وتعاجلها بالانحلال

لما علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فأطاعوا طاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

حالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وحلا هذا انه كان محبوبا من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا واذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخوص الى حيث يقيم أبو عبيدة فامتثل وسئل فيردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه أمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالي رسول الله (صل) فنزع عمامته عن رأسه وعقلها وسأله ماسأله حتى أجاب فأعاده فلسوبه الى رأسه وعممه بيده وقال سمع ويطيع لولاسا (يعني عمر) ونحن موالينا [1] « يعني حالدا » هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي أسكت مثل هذا الامير الجليل في مثل هذا الموقف فلم يتنصر لنفسه ولم ينصره أحد من المسلمين هذا على ما عرف به من عزة النفس

(١) المولى يطلق على السيد وعلى العبد

وإباء الضيم

أسكته أمران الأول علمه أنه لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بانه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولا مغلوب له على أمره بل هو حر في أن يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه او جار وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر (رض) ولولا أن يعلم حالد أن له سلطاناً في نفسه يناقش به عمر وارادة لا يغلبه عليها الا الحق لاستحال على عمر ان يعامل مثله بتلك السدة لما يعرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلاً على هذا ان أمير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد أن عامل حالداً بتلك المعاملة الا ان يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لسبة الصغائر وإعلاناً بالسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً فخطب فيهم خطبة في شأن العطاء رواها ابن الجوزي في المناقب قال في آخرها

وانى اعتذر اليكم من حالد بن الوليد في أمرته أن يحبس هذا المال على صعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (بن عم حالد) فقال والله ما اعتدرت يا عمر ولقد رعيت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعمدت سيفاً سلّه رسول الله « صل » ووضعت أمراً نصبه رسول الله « صل » وقطعت رحماً وحسدت ابن عم

فقال عمر (رض) انك قريب الغمر حدث السن مغضب في ابن عمك .

ثم تزل ولم يزد على ان ردّ عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية مايقال في اطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الايدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا أطوع له من بنانه لعلمهم بانهم انما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً لا مهيمناً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد اول من لجأ الى القوة وضرب بجيوشه وجه الدولة ونصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدث خالد نفسه بشيء من ذلك مادام لا أمر يومئذ للقوة وإنما كان الآمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بعريق من المسلمين في دوله الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا لعلي رضي الله عنه لا حكم الا لله » وتعالوا في هذا القول حتى أنكروا الروم الخلافة وسفكوا دماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى أفضى الامر الى فنائهم كما سترى بعد

اذا تمهد هذا علمنا ان حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وان الحرية لازمة لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دوله الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهدهم مبلغاً من القوة والعز وقهر الأمم وفل حموتن الدول ماعدا مسلمة في تاريخ دوله قبلهم ولا بعدهم قط ومد حتلط العرب بالاعاجم وابدعوا في أطراف البلاد وقوى قلبهم في الممالك وصعبت

عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً ادلا يزال يضرب الامراء عقلاءها بجهلائها وفضلاءها بسفهائها حتى يمحى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد لافراد الأمة أشدة تهوي الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقي الى مرتبة الانسانية وأما اذا لمع الاستبداد من عامة الأمة مبلعه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في أواخر عهدها فيذهب قواها ويميت أعضاءها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل الى هذا أشنع والموت بيد المتلمس أقطع وحسبك دليلا على هذا ما يقاسيه المسلمون من صروب القهر والسفاء من بعض الدول الاوربية التي آل اليها الملك السلب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فاداد كروا وايد كروا لما جمعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أشداد الأمم الاوربية في مضمار المنافسة الحمودة ولكن بالحرقة الفؤاد قوم مافي وادٍ والعرسون في واد

(حض الناس على الكسب)

الانسان مدني بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض اما هو ثمرة العمل فكل عمل لآخر يستدعي العوض وربما صنعة تتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها فاذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية العمل وأصلها الكسب وليس في الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق في الطلب والاسلام من الشرائع التي حتمت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا انه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع والعزيمة على السعي أمضى وقد كان عمر رضي الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وحشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ومن ذلك ما جاء في كنز العمال عن معاوية بن قرة قال لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون فقال كذبتم ما أنتم متوكلون انما المتوكل رجل ألقى حبه في الارض وتوكل على الله . وفي المناقب لابي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى عليّ ومعي رزمة لي فقال ما هذا معك فقلت رزيمة[1] لي أقوم وهذا السوق فاشتري وأبيع فقال يا معشر قريش لا يعلمنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها لمت الامارة

وفيه عن حواب اليمي قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا معشر القراء ارفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين

وفيه عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه من تحرى شيئاً لا يصيبه أو يصيب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

---

(١) تصغير رزمة وهي الكرة من ثياب

وفيه عن الاكيدر الحارثي قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا الفريضة والعربية كما تتعلمون القرآن

وفي كنز العمال عن عمر قال لولا هذا البيع صرتم عالة على الناس

وفي المنتقى عن بكر بن عبد الله قال قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال قال عمر اذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سمينا فان أخطأه خيره لم يخطئه سوقه

وفيه عن محمد بن عاصم قال بلغني ان عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتى فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد قال عمر بن الخطاب لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وان الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قول الله جل وعلا (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)

وفيه قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس

وفيه قال عمر بن الخطاب حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروأته خلقه

﴿ ترهيبه عن التنطع ﴾

(وتحذيره من الابتداع)

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الاعمال حتى العبادة وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد لعدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع فقد بدا لهم الاسلام في أعقاب الارض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من الابتداع وغلوا بالتنطع والتشدد مما ليس من الدين كان يسيهم العرب على ذلك ويهزأون بهم ويباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الاصمعي قال ، قدم أعرابي من البادية فقال لرجل يا أيها المدنية أتوضؤن بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فنكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهي الموالي من الاعاجم) فعلمت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة

وانما أراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الاعراق بالتهكم على تنطع الاعاجم لانهم (أي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكونوا في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم أساءأولئك الدين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن ، ومن هذا تعلم ان التنطع أمر لا يريده الدين وانما كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك) ومع ان الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا التنطع حتى فيما ليس من الدين

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا الى التعهد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام فخشي عمر أن يسري الى العامة حب الانقطاع الى العبادة والتنطع في الدين فيشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسع في التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل يهى الناس عن

التنطع ويحذرهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له يا هذا ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقا على نفاق

وأخرج عن أبي عمرو الشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخفقته وجعل يقول كل يا دهر كل يا دهر

وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تطعوا تنطع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالسا عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال . هل تعجل أهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما عجلوا ذلك ولم ينظروا النجوم افطار أهل العراق

وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وأنت غير طاهر . فقال له . مسيلمة (هكذا) أمرك بهذا

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام أبو الفرج أيضا عن عباس بن ربيعة قال . رأيت عمر نظر الى الحجر فقال أما والله لولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال اني لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك

وعن نافع قال كان الناس أتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت وهذا الاثر يوافق ماتدمناه في فصل (لاوثنية في الاسلام)

وليت عمر يأتي في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالحميز في مصر والمس والزيتون في الشام وهي من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين الفدماء فقدس عوام المسلمين بعضها لحجة انها هذ. دفن تحتها فلان الصالح وذلك لمسها فلان التبيح الى غير ذلك من الاعذار التي يتحلونها لعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فانا لله وإنا اليه راجعون

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فقال يا امير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن أصبت كتابا فيه كلام معجب قال أمن كتاب الله قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) الى قوله تعالى وان كنت من قبله لمن الغافلين ثم قال انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درست ودهب ما فيهما من العلم اه

(ادب وتأدب)

(أدبه مع رسول الله)

تقدم معنا في باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائما بين يديه نعني عن الاسهاب في هذا الباب وحسبه أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقه في حديبية سهيل وهو ما كان في ذلك اليوم (من قول إن محمدا قد مات علوت رأسه بسيفي هذا) والقصة مشهورة من معناها

هذا الكتاب ملخصها

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبيني وبينه جدار عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ بخٍ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله

وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني وعن سفيان بن عيينة قال قال عمر بن الخطاب أحب الناس الي من رفع الي عيوبي. وأخرج الطبري عن سلمان ان عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر ولشدما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاسام بسمة الملوك الجائرين التي أباها الاسلام وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

(تأديبه لنفسه)

كان عمر رضي الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة الى قيل فيها « لَدِرة عمر أهيب من سيوفكم » ومع هذا فقد كان سريع الانابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده

خرج الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحيى بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التميمي قال قال الأحنف بن قيس كنت مع عمر ابن الخطاب فأتيه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعدني على فلان فانه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه فقال تدعوه أمير المؤمنين وهو معرض نكم حتى اذا شغل في أمور من أمور المسلمين أتيموه اعدني اعدني قال فانصرف

الرجل وهو يتذمر قال « اي عمر » عليّ الرجل « اي ردوه عليّ » فألقى اليه المخفقة. وقال امتثل « اي اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك قال ليس هكذا اما ان تدعها لله ارادة ما عنده او تدعها لي فاعلم ذلك . قال ادعها لله . قال « اي الاحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً اذا أتيته قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا انه خير أهل الارض

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مرّ عمر بن الخطاب « رض » في السوق ومعه الدِرّة فحقق بها حقةً فاصاب طرف ثوبي فقال أمِطْ عن الطريق فامّا كان في العام المقبل لقيني فقال ياسلمة تريد الحج . فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فاعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها المخفقة التي حققتك . قلت ياأمير المؤمنين ما ذكرتها قال وانا ما نسيتها

هذه هي الفصيلة وذاك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن حقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه وانما قصد تنبيهه الى كشف الاذى عن طريق الناس والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن أوان الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة المسلمين الذي أحيط بهالة العظمة فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدِرّته حد التنبيه الى إماطة الضرر عن الطريق فاين هذا الانصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين تسطو يد القوة بعدهم على الناس وتحكمو فيهم

تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ رأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بآداب النبوة ان كان إذا أراد تنبيههم الى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم الى أهله بذلك التنبيه ليكونوا قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الا اضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

ورُوي عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبث ثياباً حساناً فصر به عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن أحاديثه في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لعلاط القلوب ما جاء في كنز العمال عن أبي عثمان النهدي قال استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء بأحد ابنيه فأتى عمر بن ابنه وقبّله. وقال الاسدي أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبّلتُ ولداً قط قال عمر فانت والله يا لكاع أقل رحمة هات عهدك لا تعمل لي عملاً أبداً فرد عهده

حوى هذا العامل بالعزل والابعاد بتاً عن العمل « الوطف » لكلمة قالها لعمر (رض) أحسّ منها عمر بغلظة فؤاده فحسبي إن هوى به اليه بالعمل ان يكون مطاعا يطاع الناس على الرعية فعزله بل كان الامراء والسلاطين من بعده

نصر يبصرون به أو سمع يسمعون به فيعلموا أنّ عمر بن الخطاب الذى أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصائنة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء اماساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفا كرأفة الوالد بالبنين وعليهم عطوفاً كعطف المرضع على الطفل

أحلّ كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الحيره الطمّون الذين ساسوا وعمروا وحاء غيرهم فحربوا ودمروا فكانوا اصواعق من العذاب انقضّت على المسلمين فقصمت على ماشيّده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وَأَفسَدَتْ اخلاقها ودهبت بعلومها وطأمست من اشراقها وأفقدتها عزها وشممها وأذلّتها دلاً هانحن اولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل انسان وليس فينا روح تدب ولا نائم يهب بل كلّ أموات يحسبنا العالم المتمدن من الرمات قلوبنا متعرقة وأهواؤنا شتّى ونفوسنا حامدة الا عن السفاسف وحُظاظا فاصرة الا عن أماكن الفساد وشأننا كله شأن من رضي بالذل والنعاس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء قلت

ومن يَهتم بشؤون كلّها خطر ... فليس يخطئ مَنْ سعيه الناس

ومن تأديبه لاسراف قريش وقهره لهم وسوسهم مع ماعرفوا به من الكبرياء والسيادة مارواه ابن الجوزى عن الحسن قال خطب عمر (رض) سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب في نفر من قريش من ملك الرؤوس وصهيب وبلال وبلك الموالى الذين سبقوا بدراً فخرج فدعى عمارا فقال لهم (أى للموالى) وتركك أولئك . فقال أبو سفيان ما أرى كاليوم قط أذن

لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم اني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاعضوا على أنفسكم دُعيَ القوم ودُعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دُعوا على أنفسكم يوم القيامة وتُركتم وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر اسلامهم الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . ياأمير المؤمنين أبو سفيان حبس مَسيل الماء علينا ليهدم مازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أوستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه ومن علم ماهي سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان تحكم قريش في رقاب الناس علم فضل الاسلام في تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالانساب ؛ ومن أخباره في التأديب مانقله في العقد الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومك قال انا قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

اذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودهم على الامم لا بالعطرسة والتجبر وحببهم الى الناس لا بالخيلاء فاسمع ماأخرجه الطبري في تاريخه عن الحسن قال قال عمر اذا كنت في منزله تستعي وتتحير الناس منه والله مالك في عمرك حتى أكون أسوة للناس

هذا خلق العظيم الذي دوّخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الامم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وأفريقيا الشمالية غربا ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه انّ هذا هو العدل الذى ليس فوقه عدل ولا جرم فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عدّه المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى انا لنفخر به على ملوك الارض فرضى الله عنه وأرضاه

ومن تواضعه ما أخرجه الطبريّ عن ابن أبي سليمان عن أبيه قال قدمت المدينة فدخلت دارا من دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطريّ يدهن الى الصدقة بالقطران

وأخرج عن رهير بن سالم انّ كعب الاحبار قال نزلت على رجل يقال له مالك وكان حارا لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس

وفى المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شئ فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لامير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ما قال لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب استصاح الامام منهم ورعاه نصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير انّ عمر (رض) كان أيام القادسية شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار وتتسمعها ثم يرجع الى أهله فلما فيه البشير سأله من أين فاخبره فقال يا عبد الله حدثنى قال هزم الله العدوّ وعمر يحب معه

ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل : فهلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا انّ عمر لما قدم الشام عرضت له محاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فامسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام في أيام الطاعون اتخذ أيله طريقاً حتى اذا دنا منها تنحى عن الطريق واتبعه علامه فنزل فمال ثم عاد فركب بعير علامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه فلما لقيه أوائل الناس قالوا أين أمير المؤمنين قال أمامكم يعني نفسه وذهبوا هم الى أمامهم فجاروه حتى انتهى هو الى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيله ونزلها فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم أمامكم وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه يشير الى انّ الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر بن الخطاب فقال هذا والله القوي الامين

وفي كتاب العين عن الفضل بن عميرة انّ الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز[1] بعباءة يهنأ[2] بعيراً من إبل الصدقة فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا يأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا فقال عمر يا ابن فلانة وأي عبد هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الامانة في المداراة .

تالله ان هذا لخلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ومن بعد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها الجدير به ان يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيماً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس بارأ بالرعية يتعب لتستريح ويسهر لتنام ويجوع لتشبع ويفتقر لتستغني فسأل الله له الرحمة والرضوان كما سأله لنفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور انه مجيب السؤال

﴿ اهتمامه بأمور الرعية ﴾

(وعسسه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتعهدهم بنفسه ويتفقد بشؤونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته وعلى ذلك فانه كان لا يزال يعس بالليل كما

---

(١) ملتف (٢) يطلى

كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره فى خدمة الرعية سواء اذ كان أكثر لياليه يمس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من أمر الهيمنة على القانون خدام للرعية مسؤلون عن راحة الامة وسعادتها لان الرعية حدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبري فى تاريخه عن بكر بن عبد الله المزني قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس محلسي فلم يدخل حتى جلست ثم قالت أدخل فدخل ثم قال هل من شئ فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلى فقال له تحوّر أيها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين قال رُفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سُرّاق المدينة فانطلق فلنحرسهم فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر ألم أنهَ عن المصابيح بعد النوم فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل اليه فقال يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب قال وما علمك يا أمير المؤمنين قال شئ شهدته قال أولم ينهك الله عن التجسس قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبد الله وانما نهى عمر عن المصابيح لان الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها فى سقف البيت فيحترق وكان اذ ذاك سقف البيت من الخريد

وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيه قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنا بصرار اذا نار نورت (تتقد) فقال يا أسلم اني أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتصاغون (يتصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء وكره أن يقول يا أصحاب النار قالت وعليك السلام : قال أأدبو قالت ادن بخير أو دع . فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأيّ شيء في هذه القدر قالت ما أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر . قال أي رحمك الله مايدري عمر بكم قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فاخرج عدلا فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فالقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذري عليّ وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدم القدر ثم أنزلها وقال اعني شيئاً فأتته بصحفة فافرغها فيها ثم جعل يقول اطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم حلّى عنها فصل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الامر من أمير المؤمنين . فيقول قولي خيراً اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحّى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول انّ لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال يا أسلم انّ الجوع أسهرهم وأبكاهم فاحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للامام أبي الفرج بن الجوزي عن أنس بن مالك قال بينا عمر يعس المدينة اذ مرّ برحبة من رحابها فاذا هو بيت من شعر لم يكن

بالامس فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلا قاعداً فدنا منه فسلم عليه ثم قال من الرجل فقال رجل من اهل البادية جئت الى امير المؤمنين اصيب من فضله: فقال ما هذا الصوت الذي اسمعه في البيت قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال علىّ ذاك ما هو قال امرأة تمخّض قال هل عندها احد قال لا قال (اي انس) فانطلق حتى اتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لكِ في اجرٍ ساقه الله اليك قالت وما هو قال امرأة عربية تمخّض ليس عندها احد قالت نعم ان شئت قال فخذي معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجيئيني برمة وشحم وحبوب قال فجاءت به فقال لها انطلقي وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرحل فقال له أوقد لي نارا ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته يا أمير المؤمنين بشّر صاحبك بغلام فلما سمع (أي الرجل) يا أمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحّى عنه فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أي لام كلثوم) أشبعيها ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر رضي الله عنه فاحدها فوضعها بين يدي الرجل فقال كلْ ويحك فانّك قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (اي عمر) لامرأته اخرجي وقال للرجل اذا كان غدٍ فاتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجاره وأعطاه

لله أيّ نفس طاهرة بارة هذه النفس وأيّ جنان خالص من شوائب التصنع هذا الجنان وأيّ خليفة عظيم بعد عمر يحمّل نفسه مثل هذا العناء ويضع نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بافراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة المساوي بأفراد الرعية وهيهات هيهات

فانّ الجبروت ملكة فى نفوس الملوك لايمحوها الاّ الرغبة فى الله كرغبة عمر او الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الافرنجة من رعيتهم لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة ابى بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الاّ من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقد كان عمر كما في رواية النخعي تاجراً وانما هو كأبي بكر رضي الله عنهما ترك التجاره لما ولى امر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف وقال اصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في العطاء أقام نفسه مقام الاجير وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي فى المناقب عن نافع عن ابن عمر قال جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال اني كنت امرءاً تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فما ترون انه يحل لى من هذا المال فاكثر القوم وعلىّ رضى الله عنه ساكت فقال ياعلىّ ماتقول قال مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الامر غيره فقال القول ماقال علىّ بن أبى طالب

واخرج عن اسلم قال قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال ما يحل لك من هذا المال فقال ما أصلحنى وأصلح عيالى بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبرى ان هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واستدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا فى زيادة يريدونها العمر فى ورقه من بيت المال وما وافقته بذلك فاتوا ابنته حفصة وأمروها ان تخبره باخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له

أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسؤتُ وجوههم أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما أقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأيّ الطعام ناله عندك ارفع قالت حبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة [1] فحملناها هشة [2] دسمة فأكل منها وتطعّم استطابة لها . قال فأيّ مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ [3] قالت كساء لنا بحين كنّا نرتعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبلغيهم عني انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رفع الفضول مواضعها وتلّع بالرحية واني قدّرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلّغنّ بالرحية [4] وانما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزوّد زاداً فبلغ ثم اتبعه الثاني فان لزم طريقهما ورضي برادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يكن معهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العرى وروى في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة . وفي المناقب أيضا عن أبي عثمان الهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة احداهن بادم (جلد) أحمر وفيها عن قتادة أنّ عمر بن الخطاب أدبأ على

---

(١) قرية اسمن الصغيرة (٢) صرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تلع كفرح ولع في مشيه والرحيّ والرحى بمعنى واحد وهو صدأ الس

الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم فى احتباسه وقال انما حبسنى غسل ثوبي هذا ولم يكن لى ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبستَ ثوبا هو ألين من ثوبك هذا وأكلت طعاماً هو أليق وأطيب من طعامك فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال اني سأحاصمك الى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش فما زال يذكّرها حتى أبكاها

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة فى الزهد نعلم انه (رض) انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين مثل هذا الزهد والتقشف وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسط كي لا ينغمسوا فى النعيم ويسترسلوا فى الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتر هممهم ولا يقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتا عن نعيم الحياة فتحمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه لدى كتبه الى أبي عبيدة ابن الجراح (وستأتى صورته فى باب كتبه) يلومه فيه على شدته فى منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه فى حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدّد على العمال فقط في النهي عن التنعم ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتبسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في اسباب الرفاه فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت احدهم حاجة السرف الى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأدى بهم الرعية وتصرف طام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا احب اليه منه

كلمة في بيت المال

علمت مما مر في الفصل السابق انّ عمر رضي الله عنه انما سلك في زهده وتقشفه طريق النبوّة ولم يأخذ من بيت المال الاّ مقدار الحاجه للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين انما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولمّا اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الامير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترفقت أحوال معيشته اذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وأبي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما آداب النبوّة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه حاز له ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقتير

وقد رأيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقضي تلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بقبول الاموال كما انه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وجدا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا في بيت المال أو أمر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيها كل الحكمة وليست في دائرة ممانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة الى حد الاستئثار

بأموال بيت المال وتبديدها في سبل الشهوات ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الامة كما بالا الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الاسلام مبلغا يدهش عقول الباحثين وما نطن الا انّا اكثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن اسراف امرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي تتفاوت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتباين بتباين صفة الحكومة في كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التي لاحد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف وانما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية يأخذون منها ماشاءوا ويمنعون من شاءوا ويسفقون الاموال فيما شاءوا ليس عليهم من الامة رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عتيد وقلّما نجت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط الا في رادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول الاسلام سيأتي في هذا الكتاب وأما من دول أوروبا فيكفي فيه ان يقال ان الامبراطور شارلكان الذي قام في أوربا في أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الاوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد في بيوت الاموال جعل ينفق منها في سبيل سيادته على الملوك في عصره مالا يدخل تحت حساب حتى اذ أحسّ بالعجز عن سياسة دولة الملك العريض لفقر بيوت أمواله وانها كه قوى رعيته تروى في دير من الاديرة ولم يلبث ان مات فيه وانكشف عنه عن سماء الملك لاروما ولا قصر الاسكوريال وانك أساس ما سماه شارلكان [illegible] من الملك الكبير

حتى كأنه ما كان . لهذا لما تنبهت الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والامبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الاموال وفرضوا لكل منهم كفايته منه بنسبة حاله فى المعيشة وحال بلاده من الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء فى صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة فى الامم اذا دب دبيبها فى جسمها وبهت دورة الدم فى عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور انّ يد الحاكم متى أطلقت فى بيت المال يتفشى الخلل فى سائر فروع الحكومة تفشيا وبيلا بحيث لو أراد الحاكم نفسه ان يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأى سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً أو مملكته غنية وأقرب شاهد بذكره للشرقي هنا ما كان فى عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق فى مصر من الخلل العظيم فى سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها فى الوجوه التى لا تستلزمها حياة الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان مات العامل فى الحكومة والجندي فى الثكنة لا يتناولان مرتبهما الا كل بضعة شهور مرة مع عى البلاد وثروتها ومع ما حملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولما أحسّ بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحود على مالية الحكومة وهب لتلافى ذلك الخطر وأخذ فى تعليم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه فى السياسة وحنكته فى الامور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ثم فشل فشله المعروف في التاريخ وانتهى الامر بعزله عن امارة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولما تولى الإمارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جلل لا يقوم به الا العفيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فأول ما بدأ به أن كف يده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك باشارة بعض مندوبي الدول صاحبات الشأن في المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول اشارتهم ومن ثم ظهرت في الحكومة علائم الاصلاح وبدت في الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث في مصر من أسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الانكليزية في البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية في نمو وجباية البلاد في ازدياد حتى بلغت الى هذا العهد عشرة ملايين ونصفا وبيعا من الجنيهات وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاما يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء الى ما شاء

هذا وأما واضع بيت المال في الاسلام فانه أبو بكر (رض) كما مر في سيرته وانما كان سادا تحشر اليه الاموال من الفيء والصدقة ثم تورع في اماكنها المشروعة وعلى نحوه الى أمر بها الله في الكتاب الكريم الذي وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك الا انه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد في ديوان وقد رأيت فيما مضى من سيرة عمر رضي الله عنه كيف بعض لوصي الديوان ما كان الفيء والخراج وارد ت اليه ضبطا لامور بيت المال وتقسيما للصدقات وانما كان ديوان بيت المال هو الدفتر الذي

يضبط فيه الحساب ثم ما زال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كافرادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الائمة والفقهاء بعد في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لابي يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الا ان أمر بيوت الاموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الامراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبته ﴾

أصل الحسبة هي مشارفة السوق والنظر في مواريه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره وتسعير السوق ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الارقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على ما نظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق وقال العلماء هذا اصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقت الحسبة في الاسلام ترقيا حتى كانت من اهم الشؤون التي عني بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء توسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر معروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء شيخ الاسلام ابن

تيمية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في اقامة الصلوات الخمس في مواقيتها وتعاهد الائمة والمؤذنين وإلزامهم باداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ماقاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الاسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصها ومايستفيده المتولى بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اه

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لها حتى انا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الرخام ومزينة آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف اوماهو بمعناه ومثلها للاوزان الحميقة وكلها كانت تصدر من والي الحسبة او المحتسب على تعيير المتأخرين لاجل ان يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والاوزان على مايظن منعاً للتلاعب والغش الا اننا لم نقف على التاريخ الذي التي فيه اسم المحتسب ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية في المملكة العثمانية وسنتكلم عليها في مكان آخر باوسع من هذا ان شاء الله

اما حسبة عمر رضي الله عنه فقد قدمنا انه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر باماطة الاذى عن الطريق

أخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن رافع قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب رجلاً ويقول حملت حملك لا يطيق

وفي كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرّة اذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكاك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن علي انه كان يأمر بالمثاعب [1] والكنف تقطع عن طريق المسلمين

وفيه عن القاسم بن محمد ان عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بسوق المصلّى وبين يديه غرارتان فيهما ربيب فسأله عن سعرهما فسعر مدّين بكل درهم فقال له عمر : حدثت نعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فاما أن ترفع في السعر واما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال ان الذي قلتُ ليس بعزمة ولا قضاء وانما هو شيء أردت به الخير لاهل البيت حيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعي في السنن)

وله اخبار غير هذه في الحسبة وقد اكتفينا بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضي ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فلا نرى حاجة للمريد هنا الا بعض أخبار عمر في القضاء فانا نأتي بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه ويذب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام فحق له أن يتولاها بنفسه

(١) مسائل تذكر في الفقه

وأن ينيب بها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما الا الاهلية والاستعداد والتقوى والعدل ويعلم ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقصد اخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك ابن عمير قال قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال من استعمل فاجراً وهو يعلم انه فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدله يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل قاض من أنت قال قاضي دمشق قال كيف تقضي قال أقضي بكتاب الله . قال فاذا جاءك ما ليس في كتاب الله قال أقضي بسنة رسول الله قال فاذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله قال اجتهد رأيي وأوامر (أي أشاور) جلسائي قال أحسنت وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك أن أفتي بعلم وان أقضي بحكم . وأسئلك العدل في الغضب والرضى قال فسار الرجل ماشاء الله ان يسير ثم رجع الى عمر فقال ما رجوعك قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب فهذا مع أيهما كنت قال مع القمر قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا ولي عملا

وانما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع عماله رضي الله عنه

وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى

آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضي الله عنه انه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس. وأما كلامه في القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿ كتابه في القضاء الى شريح القاضي ﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به. فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الامرين شئت. ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم فتقدم. وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيرا لك اه (من كنز العمال)

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من أحب في كتب الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة ولم يؤاخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة وقد أحلت في ظروف مخصوصة ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر العوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث وغير ذلك من الاحكام النافعة التي أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء

﴿ كتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم

اذا أدلي اليك[1] فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس[2] بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك[3] ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم عند ما يتلجلج[4] في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[5] في ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات. ثم اياك القلق والضجر والتأذي بالناس والتكدر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)

وهذا الكتاب على ايجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء الى هذا العهد

---

(١) رفع اليك الامر وحي به اليك (٢) اعدل وسوى (٣) الحيف الجور والظلم كما في القاموس (٤) اتلجلج التردد في الكلام كما في تاج العروس (٥) هو المتهم بسبب قرابته أو ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضي الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ماتكنه النفوس وقد ساعده تفرسه في الناس على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له النفوس رعبة ورهبة وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناهاً لكنه ضمائرهم ليحسن الى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت في قلوبهم هيبته وفعلت في نفوسهم فراسته

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال فيم انتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع مواطنهم وأدرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم انكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب قالوا صدقت قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب اخوف مني من العرب عليكم والله لتدخلون معاشر قريش حجر أكدحلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا نحسبك ما في هذا الكلام من المعاني خلا ما فيه من الاستخفاف بقوة العرب وانما أدرك ماخامر نفوسهم من أحرار الردة فاراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمصافرة أبي بكر ومكاتفته على استخصاع العرب ويبين لهم انهم قدوة العرب وأئمة الناس فحسبما انتهوا اليه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذي شهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر وسيق بها العرب الى ماسمو اليه ودخلوا مع قريش لي حيث دخلوا كما هو معروف في

التاريخ وسنيشير اليه في محله ان شاء الله

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان أمر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها كما سترى في احدى خطبه التي تحي في باب الخطب وانما عجل ببيعة أبي بكر لما كان يعرسه في وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ويا ويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ما حدث في خلافة عثمان وما بعده اذ كان الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه ببايعته لابي بكر لعلمه بأقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سناً وأصعبهم عصبية فاذا تعجل ببايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبيات الكبيرة فكانوا باجمعهم عصبية لابي بكر يذودون عن حوضه ويعنون بحفظ طاعته لاسماء ان ليس لاحد منهم عاصم بعد تقرير أمر الخلافة الا نصره الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته واعلم تراحموا على الخلافة بعد لاعتزار كل فرد منهم بعصبيته وسابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما عهد في غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . أي كانوا أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فعياء عمر ببيعة أبي بكر قطع جميع قول كل خطيب وحملهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزمه ولاصمتان صمير كل فرد من المتطلعين اليها نصرة له عن آخر وهذا الذي دعا لارتياحهم

جميعاً لخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها المعارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ماذكره ابن عبد ربه في العقد قال قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل فلما صار الامر الى علي استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل

هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة واثارة غبار الفتن والاستحواذ على دلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه حلة المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملا كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ماذكره في العقد ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحيها خير من ولاية لا تحصها)

وكان عمر لفرسه فيهم التطلع الى الامارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاهر بقوله هذا فيهم وقد حاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ومنه ماتقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له يا ابن عباس اني حسبت أن يأتي علي لدي هوى آت وأت في عملك فقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعدُ اذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية. وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم. على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا اذا استمرى نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وحملوا الأمة بأجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وانما هو لما وقر في نفوس الامة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الاسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والاخاء التي حسرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) فوجهم أن يسلبهم سواهاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستحلاف أحدهم بذلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال ماشيت عمر ابن الخطاب يوماً فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة قلت لا أدري قال لكني أدري ان كنتم فطنتموهم بالنبوة فقالوا ان فضلوا بالخلافة

مع النبوة لم يبقوا لها شيئاً وان أفضل النصيبين بأيديكم بل ما احالها الا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم أنف قريش (يريد الخلافة)

﴿ لا بد من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما اخرجه في المناقب عن الاحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضي الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم. فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم ان لها عليكم حقاً لا حليتم عنها فأكلت من نَبْتِ الارض فقلنا يا أمير المؤمنين انا قد سمعنا بفتح عظيم فاحببنا التسرع الى أمير المؤمنين بما يسره

عن نافع قال دخل شاب قوي المسجد وفي يده مشاقص[1] وهو يقول من يعيني في سبيل الله فدعا به عمر فأُتي به فقال من يستأجرني هذا يعمل في أرضه فقال رجل من الانصار انا يا أمير المؤمنين قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به فعمل في ارض الرجل اشهراً ثم قال عمر للرجل ما فعل أجيرنا قال صالح يا أمير المؤمنين قال ائتني به وعما اجتمع له من الاجر فجاء به ونصرة من دراهم فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالآن اعر وان شئت فاحبس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلا للعمل فاعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عاله على الناس

ومن جميل اخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس شرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

---

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض او سهم فيه ذلك والمعمل الطويل او سهم فيه ذلك يرمى به الوحش

ابنة لي كنت وأدتها [1] في الجاهلية فاستخرجتها قبل أن تموت فأدركت معنا الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب الى قوم افأخبرهم بالذي كان . فقال عمر (رض) اتعمد الى ماستره الله فتبديه والله لئن اخبرت بشأنها احداً من الناس لاجعلنك نكالا لاهل الامصار لنكحها نكاح العفيفة المسلمة

ومن أخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في الموطأ عن الليث عن عبد الله بن صالح قال أتي عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمرد واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظهر لي قاتله حتى اذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك وُجد صبي مولود ملقى موضع القتيل فأتي به عمر فقال طهرت بدم القتيل ان شاء الله فدفع الصبي الى امرأة وقال لها قومي بشأنه وحدي ما نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى صدرها فاعلميني بمكانها فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي تعتني اليك تعني الصبي لتراه وترده اليك . قالت نعم اذهبي به اليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من أصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل الى منزلها فوجدها متكئاً على باب داره فقال يا أنا فلان ما فعلت ابنك فلانة قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من عرف

(١) الوأد هو دفن البنات وهن أحياء وكانت هذه الوأدة من أمور الجاهلية وماحاه الاسلام أبطالها

الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها فقال عمر قد أحببت أن أدخل اليها فازيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى ارجع اليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كلّ من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معها أحد فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن . انّ عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها اماً وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فامضيت بذلك حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها منه ان تضيع وقد أحببت أن اضمها اليك حتى ارجع من سفري . فعمدت الى ابن لها شاب امرد فهيأته كهيئة الجارية وأتتني به لا أشك انه جارية وكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية حتى اغتفلني يوماً وانا نائمة فاشمرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي الى شفرة كانت الى جنبي فقتلته ثم امرت به فألقي حيث رأيت فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته القيته في موضع أبيه وهذا والله خبرهما على ما أعلمتك فقال عمر صدقتِ بارك الله فيكِ ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج وقال لا يبها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنك وقد وعظتها وأمرتها فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وحراك خيراً عن رعيتك

﴿فنون شتى من أخباره﴾

عن الحسن قال عاب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا فاعطانا وأحسنا فاحسنا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدّى عليه فقال اللهم اني لا أحل لهم اعتسارهم ولا انتسارهم (أموالهم وأجسامهم) كلّ من ظلمه أميره فلا

أمير عليه دوني ثم أقاده منه (أي أخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن يخدع

في كنز العمال عن طاوس انّ عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما علي قالوا نعم قال لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا

وفيه عن عمر قال الرعية مؤدية الى الامام ما أدّى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الامر الا رجل فيه أربع حلال الدين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسماحة في غير سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما اظن ان خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح يا راعي الغنم فاجابه الراعي فقال له انى مررت بمكان هو أخصب من مكانك فانّ كل راع مسؤل عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد الرعاة الى اماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيهات هيهات فانّ السهوات علاّبة ومحبة لذات خلاّبة وليس كل النفوس حيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب انّ عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولى هذا

الأمر حتى فليعلم امرؤ بده عبد العزيز وأيم الله ما كنت لأقاتل الناس عن ضحيح بعلا

وأخرج ابن الجوزي في المناقب عن يحيى بن حمدة قال: قال عمر لولا أني أسير في سبيل الله أو أضع جبيني لله في التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لاحببت أن أكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال، قال عمر والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم: فقال قائل يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقا قال ما هو: قال الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولا كانوا او شبانا

وفيه عن الاوزاعي قال بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه غيره فمال عليهم ضربا حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضربوا فانها نائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوكم انما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم انها تؤدي أمواتكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم انها تنهى عن الصبر الذي أمر الله به وتأمر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال ربما أخذ عمر بن الخطاب يد الصبي يجيء به ويقول ادع لي فانك لم تذنب بعد

وفيه عن محمد قال كان عمر يشاور حتى المرأة

وفيه عن أبي امامة بن سهل قال كتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الحذق بالسبحة لذلك العصر

والمراد بهذا المصنع ما يلزم لإعداد الحرب كبيرة وصغيرة من الكتب لأجل عمل المواد اللازمة التي يحتاج اليها المحارب ومعلم الهندسة والميكانيكا التي تعلم صناعة الآلات لأجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من لوازم القوة والدفاع وفن الجغرافية لأجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها وجبالها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وبرودتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها واعلان الحرب على أهلها (ومن الغريب) ان يقوم منذ سنتين بعض علماء المسلمين في مصر معلنين على ملأ الناس ان ادخال أهون هذه العلوم في أصول التعليم في الازهر وهو فن تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤن كل يوم مئات من مثل هذه الآثار والاخبار تدعو الى الحض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مباراة الامم في مضمار الحياة والقوة وكأنهم لا يقرؤن من ذلك شيئاً ولا يعلمون فانا لله وانا اليه راجعون

وأخرج الطبري عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنا نعد المقرض بخيلا وانما هي المواساة

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار في يده - أشقى الولاة من شقيت به رعيته . أعقل الناس أعذرهم للناس ما الحمر صرفا اذهب لعقول الرجال من الطمع لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا مر ذوي القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا قلما أدبر شيء فأقبل أشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القوي من لا يعرف الشر كان أحذر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الالباب)

ودخل عدي بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين انا

عديّ بن حاتم فقال: ما أعرفني بك آمنت اذ كفروا ووفيت اذ غدروا وعرفت اذ أنكروا وأقبلت اذ أدبروا (عنه أيضا)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيراً منها كذب. وقوله تعلموا المهنة فانه يوشك أحدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال. قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون في الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء فيغلب الخلق السيء التسعة الاخلاق الحسنة فاتق عثرات الاشياء

وفي المناقب عن عبيد أمّ كلاب انه سمع عمر يقول لا يعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ولكن من أدّى الامانة وكفّ عن اعراض الناس فهو الرجل

وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة في ترك خلطاء السوء وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله في بيان فضيلة الكسب ما ذكره في المناقب عن عطاء قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأن أموت بين شعبتي رَحْلٍ (هو قتب الحمل) أسعى في الارض أبتغي من فضل الله كفاف وجهي أحبّ اليّ من ان أموت غازياً (كلمة احمالية في أخلاقه)

هذا ما أحببنا ايراده من مناقب عمر (رض) وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

(١) سوت صلاته في العين

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق فلّ ان تجتمع فى عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الامر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ما روى ان معاوية بن أبى سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلاً فى قضيته عارياً من الكبر قولاً للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب ولا حافٍ للغريب

وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأنى في الامور والاستشارة في جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها فى خلافته ودلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الامر وتمحيص الاشياء شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول ويقول ما يريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلاً أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فلا غرو ان افتخرت كل أمة

رجالها فنحن لا نبالغ اذا قلنا ان هذا الرجل العظيم كان الأعظم اذا كان هناك مبالغة في القول أو غلو في الوصف ووقف غيره من سير رجال الامم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وأنا أضع له خدي في التراب اعترافا بالحق وإقرارا بتفضل ذوي الفضل من رجال العالم

ثم ان من مشهوري الرجال رجالا أسسوا ملكا عريضا أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك ما لم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال ولكن هل منهم من كان كعمر جبارا غير ظالم كريما غير مسرف عادلا لا عن ضعف شجاعا غير متهور رقيقا غير شره زاهدا بغير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع كلا ما نظن ان أوصافا كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لا سيما اذا نشأ في بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة ممروف والتاريخ حكم عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وانا والله لنتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وعدتهم لبان السياسة بعضا من أخلاق عمر يحملون بها الامة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التي ساقتها اليها يد الظلم والاستبداد والجهل باصول سياسة الرعية ولله في خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ما هو من أولياته ونحن نقل هنا بوجه الاجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه وهو أول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من ضرب في الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة التراويح وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الاحمر) الى المدينة وأول من احصى صدقة (١) في الاسلام وأول من أعال الفرائض (٢) وأول من أخذ زكاة الخيل وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله ابي) وأول من قال أيدك الله (وقاله أيضاً) وأول من اتخذ الدرة وأول من استقضى القضاة في الامصار وأول من مصر الامصار وأول من سمي أمير المؤمنين وكان يكتب اولاً من خليفة أبي بكر او من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرة الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث اليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على امير المؤمنين فقال عمر انما والله اصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا امير المؤمنين فقال مابدا لك في هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال أنت الامير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعني به المقطع وأول من وسع المسجد النبوي ورشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد ونزيد عليه انه أول من ضرب النقود في الاسلام وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل واول من أقام واليا للحسبة وأول من شق الترع واقام الجسور وأول من وضع المرابطة من الجند في الثغور وسمى الاجناد واول من أمر بالعناية بالمناطير وأول من عين شخصا مخصوصا لاقتصاص آثار العمال وتحقيق

---

(١) أي وقف وقفا (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي ان ترد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن سلمة وربما كان له أوليات أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلاً فيما مر من هذا الكتاب

باب كتبه

١

كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام

أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ماسواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يجب عليك لا تقدم المسلمين الى هلكة وجاء غيمة ولا تبرطهم برا قبل أن تستريده(١) لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية الا في كثف من الناس واياك والقاء المسلمين في الهلكة وقد أنالك الله بي وأبلاني بك فاغمض بصرك عن الدنيا وألفه قلبك عنها واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبري ورأينا صورة غيرها في حقائق الاخبار وهي بنصها

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويبقى سواه الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تقحم المسلمين الى الهلاك وجاء غيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو لكم الظفر واياكم والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة واغمض عن الدنيا عينك وألقَ عنها قلبك واياك أن تهلكك كما أهلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بنت كالحمام وقد تقدم اليه سالمك فينتظر سيراً أو سفراً طويلا من دار قد عصت بصارتها ودهمت منها رهارتها فأخرج الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك وبحوالك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاحرتكم عليه فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه

(١) تحيره

٢

وكتب الى أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرّني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا نكس الرأي أتترك رحلاً ملكت ديارهُ ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هذا رأي فيضعف رأيك ويعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الحوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فثنّ الخيل في السهل والسعة واكمنها في المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالى اه

٣

وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيه بانه لايريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف احلاد الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ماوهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معيناً لطيعاً وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فانه عز وجل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات قال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب عليك أن ترتاح للمسلمين من تعبهم وتدعهم يرعدون (١) في مطعمهم ويربحون لانهم النصة في قتال من كفر بالله وأما قولك انك سمعت أمري [illegible]

(١) يوسعون ويسمنون

الدروب حلف العدو فانت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى مالا يرى الغائب وأنت محصرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أنصرت نساء الروم فارادوا التزويج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته

(نقله والذي قبله في حقائق الاخبار عن مشآت السلاطين لمريدون ذلك)

٤

وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالحابية ونصه

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد فانه لم يقم أمر الله في الناس الا حصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحيق في الحق على حرته (٣) ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)

٥

وكتب الى ابنه يصحه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له ولا حديد لمن لا خلق له (العقد الفريد)

٦

وكتب الى أبي موسى الاشعري يوصيه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان للناس هرة عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني وانا في عمياء مجهولة وصعاب محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة من نهار وادا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى وكن ممن يخشى الله على وجل

---

(١) قوله حصيف العقدة اى محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل ربطه وهي كناية عن احكام الامر بالمعنى الباقي واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغرة هي الغفلة (٣) قال في لسان العرب لا يصلح هذا الامر الا لمن لا يحيق على حرته اى لا يحقد على رعيته ولا يلح لا يحيق على حرته اى لا يكتم سراً

وأخف الصداق واحملهم يداً يداً ورحلا رحلا واذا كانت بين القبائل ثائرة (١) وتداعوا لآل فلان فانما تلك نحوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى امر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ أمير المؤمنين أنّ ضبّة تدعو يآل ضبّة واني والله ما اعلم أنّ ضبة ساق الله لها خيراً قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فاهكهم عقوبةً حتى يفرقوا (٢) ان لم يعقلوا والصق نعيلان بن خرشة من بينهم وعُدْ مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر امرهم بنفسك فانما انت امرؤ منهم غير ان الله جعلك أثقلهم حِملا وقد بلغ امير المؤمنين انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك ياعبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب فلم تكن لها همة الا السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مردًّا الى الله فاذا راع العامل راعت رعيته وانّ اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الافكار)

٧

وكتب الى معاوية وقيل الى ابي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونصحي خيراً اياك والاحتجاب وأدن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتحرّئ قلبه وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق ادنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس ما لم يتبين لك القضاء واذا حضرك الخصمان فالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الافكار)

٨

(كتابه لاهل ايلياء ٠ ٠ القدس ٠)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضارّ أحد منهم ولا تسكن ايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن

---

١ قوله ثائره أي عداوه وقوله فيئوا أي يرجعوا (٢) وقوله حتى يرقوا ي يحفو وعرعو واذا كانت بسد بدالراء فمعناها سعروا

وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (١) فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان (٢) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصدَ حَصَادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبري)

٩

(كتابه الى أهل لد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدٍّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ولا مللها ولا من صُلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم ان يخرجوا منل ذلك السرط الى آخره (عن الطبري)

١٠

« كتب الى سعد في اليوم الذي يرتحل فيه من شراف »

أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذَيْب الهجانات وعذيب القوارس وشرّق بالناس وعرّف بهم « عن الطبري »

١١

(وكتب اليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فعاهد قلبك وحدث جدلك بالموعظة والنية والجسة ومن عمل فليحدثهما «٣» والصبرَ الصبر فان المعونة تأتي من الله على قدر النية والاجر على قدر الجسة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية واكثروا من قول لاحول ولا قوة الا بالله واكتب الىّ اين ينزل جمعهم ومن

---

(١) وفي رواية والمصرص وهو الظاهر ٢ هكذا في الاصل «٣» هكذا في الاصل والاحداث لابدا فتحرر

رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد سمعني من نصح ما أردت الكتابة به اليك قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم فصف لنا مبارك المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من امركم على الجلية وخف الله وارجُه ولا تدل شيئاً واعلم ان الله قد وعدكم . وتوكل لهذا الامر بما لا تخلف له فاحذر ان تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

« وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه »

اما بعد فسِرْ من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الآن توافقوا عيصاً من قيض وادا لقيتم القوم أو واحداً منهم فاندؤهم الشر والضرب واياكم والمباطرة لحموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تحادوهم وادا انتهيت الى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر واسهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنهارها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والحراع بينهما ثم ألزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك انعصتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على حيالهم ورجلهم وحدهم وحدهم فان اعتصرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وبوتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابداً الا ان يجمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فاعتصرتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كبتم عليها احرأ وبها أعلم وكانوا عنها احس وبها اجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

١٢

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته فأقم مكانك حتى تعض به عدوك واعلم ان هذا

---

١ » كؤوده اى صعبه وفيوضه اى مياهه الفائضه ودآدئه جمع دُؤداء وهو بعيد وسيع وتوافقوا اى لاقوا عيصا من قيض أى قبيلا من كثير البتة لطرق تكون في حزن وشث وجمع اثقاب ولعل مراده بالاثقاب هنا أنقاب الجبال التي على الانهار وحجر ومدر كما يعلم مما بعده والعمران او المدن والبصاء لان المدر هي المدن والحجر هي بيوت الوبر وقوله اعتصرتم اى جمعتم

ما عندها فان شئت ان تبعث الينا جيشا فابعث جيشا لا تزع عنهم حتى تضع فيهم السلاح فانه حرام
ان تفعله (الطبري)

١٢

وكتب الله أبو عبيدة ومعاذ بن جبل بنصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر بن الخطاب سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الا هو (اما بعد) فانا عهدنا لك وأمر نفسك لك مهم فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه وتجب (١) له القلوب وتقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون «٢» له يرجون رحمته ويخافون عقابه وانا كنا نحدث ان أمر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فاني أحمد اليكما الله الذي لا اله الا هو (اما بعد) فقد جاءني كتابكما ترعمان انه بلغكما اني وليت أمر هذه الامة احمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانه لاحول ولاقوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبتما تحذراني ماحذرت به الامم قبلنا وقديما كان اختلاف الليل والنهار آت حال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى مصارعهم من الجنة والنار ثم توفى كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب كتبتما ترعمان ان امر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم وكتبتما تعوذ اني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا عمى

(١) تحاف (٢) اى ادلاء صاغرون

في عكما والسلام عليكما (فتاح الامكان)

وله كتب غير هذه تقدم ايرادها في مصنوف اخبار وكتب أخرى كتبها الى عمرو بن العاص وهو في مصر ايام تمام الفتح وقد رجع بكرها الى عمرو بن العاص لان ايرادها في سيرة أنسب لاشتمالها على شمائل المكاتبة بين الاثنين في شؤون جامعة سنوضح في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملا بأمر كتابهم وهدي نبيهم ولا يسكتون عن أداء النصيحة للامام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون أن النصيحة بالحري وله أولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتمهد بما يقيم الأود ويصلح السبل شأن الأمم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد اتيحت لهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حرس المناصحة أن لا يغفلوا ساعة عن نصيحة الامام وهو من هو قد الأمة الاسلامية ونجم الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامساك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما اذا رخص بامر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أي تقويم السهم المعوج كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته فما ارداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم منتهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بتحميل نصحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له في خيال ان استرشاده بآراء ذوي الرأي والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أو مس لسلطانه لهذا كتب لابي عبيدة ومعاذ لما نصحاه في آخر كتابه (قد صدقتما فعهداني مكما بكتاب فلا عي بي عنكما) وقد رأيت فيما مر رجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر وقوله للمعترض دعه فلا خير فيكم ان لم تقولوها ولا خير فينا ان لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير بل الأمير أولى بان ينصح ويستنصح لسبب ما وسد اليه من أمور الملك التي ليس من طوق الآحاد

القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الاثرة وأطاعوا هوى النفوس وكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور أن الامارة مرتبة لاينبغي لها أن تكون الا في مصاف الملائكة المقربين أو الانبياء المعصومين وحدا لو تحقق هذا التصور لانسان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذي يهرب منه والتعاون الذي يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه أودى بدولة بني مروان في اثناء شبابها كما أودى بكثير من اصرابها

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي تتربى فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الاعراق وتنبت روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها أثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط اذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر وتسري روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكراه فيربي الكبير الصغير ويرشد المهتدي الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل العون مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه وتقوم أوده فينتفع الكل بالكل وتعم السعادة والرخاء سائر الناس

أخل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وأبي عبيدة وعمر واصرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم فسادوا بالمناصحة والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرهم ابطار الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة وبالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت في هذا الكتاب

وهي هي المدرسة التي علمت الشعوب الاوربية حرية الضمائر والافكار ورفعتهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسوّدتهم بهذا العهد على الامم فملكوا ثلاثة أرباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحوا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة في الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبرة والحاوى والفريم ومجاري وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الاسلامية

ليس بعجيب أن يصير المسلمون في أسر الدول المتغلبة وتتقلص ظل مجدهم عن الارض بعد اذ كان شأنهم في المناصحة والقيام على الحق ما ذكر ثم بما ترك المناصحة وانحطاط النفوس والاخلاق غرق كثير منهم اذ صاروا يعدون الناصح بالمعروف

حارحاً عن دينه خارحاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الدين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمد عدلاً ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١)

ومن البديهي ان مدح العدل وذم الجور انما يكون بأن يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت فاستقم كما أمرت وهو من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم

ومن الاعراق في الجهالة والتناهي في الانحطاط ان يرى المسلمون بلادهم تخرب واستقلالهم ينزع وملكهم يزول ودولهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على أمرهم وراحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع واحتلوا عليهم بالحيل والرحل وسدوا دونهم مسالك الصناعة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخوانهم غيور من بني دينهم الى النظر في أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الاسباب وحكمهم في التفريق بين حظها والصواب اعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماه بعضهم بانواع الزور وتقرب عياله واهله ودنه الى ولاة الامور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف اليهم واكتساب رضاهم وان اغضب الله والمروءة والوجدان وخرج عن الانسانية والدين اذ لا وازع من النفس ينهاه ولا ضمير تلوى عنان شهوته عن ظلم اخيه والشواهد على هذا كثيرة في الاشخاص والأعمال سنأتي على بيانها في محالها ان شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتي والحاضر وصورة في التاريخ ترهف قلوب الاشرار وترجع عن مواطئ الرذيلة اقدام الفجار

باب

في خطبه

اوردنا عند ذكر استخلافه اول خطبة خطبها ورأينا في روايته جرى رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن ابيه ورواها غيره من المحدثين من طرق

١ اخرج هذا الحديث في سند العامة في ترجمة امير المؤمنين

احرى ان اول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال (اللهم اني شديد فليني واني ضعيف فقوني واني بخيل فسخني) وقد رأينا هذه الخطبة في العقد الفريد بعبارة اطول الا انها لاتخرج عن هذا المعنى

٣

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال

ايها الناس اني قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلظة وذلك اني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وحلواره (شرطيه) وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رؤفاً رحيما وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يعمدني او ينهاني عن امر فأكف عنه والا أقدمت على الناس لمكان امره فلم ازل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم قمت ذلك المقام مع ابي بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم في رفقه وليته فكنت خادمه وحلواره وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس اخلط شدتي بليته الا ان يقدم الي فاكف والا اقدمت فلم ازل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم صار امركم اليوم الي وانا اعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الى غيره فكيف به لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لا تسألون عني احداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ماقد عرفت وما اصبحت نادماً على شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سألته واعلموا ان شدتي التي كنتم تروونها ازدادت أضعافاً على الاول على الظالم والمتعدي والاحد للمسلمين لضعفهم من قوتهم واني بعد شدتي تلك واضع خدي الى الارض لأهل العفاف وأهل الكفاف ان كان بيني وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه الى من أحبه منكم فيطر فيما بيني وبينه واتقوا الله عباد الله وأعينوني على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحصروا النصيحة لي ولاني الله من أمركم ١

---

(١) عرف عمر طبيعة بعض الناس لوارده هذه الخطبة لان الناس الذين سمع لي سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يمكن من ضبط الاغلاط المشوشة والمسافة بينها خط الرسم

٣

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر فهل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية . انه لم يبلغ حق ذي حق أن يُطاع في معصيه الله (١) ألا وانّي أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولىّ اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف

٤

وفي الخراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى الا أنها أطول وأجمع رواها عن طلحة بن مصرف قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يُطاع في معصية الله واني لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما أنا وما لكم كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الارض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها لكم عليّ أن لا أحبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يدي أن لا يخرج مني الا في حقه ولكم عليّ أن لا أريد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم ولكم عليّ أن لا ألقيكم في المهالك ولا أحمركم (أحسكم) في ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير الفراء قليل الفقهاء كثير الامل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك

---

(١) يعني بذي الحق نفسه وهو الحق والسلطة الذي لا يتعدى ما أمر الله من العدل في ما تأمر به النفس وتطلبه السادة وهو من قبيل قول أبي بكر رضي في إحدى خطبه اطيعوني ما أطعت الله فيكم فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها بالحق وأعدلها وأرحمها لسرعة الانصاف مع الرعية

منكم فليتق الله ربه وليصدر . يا أيها الناس ان الله عظّم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوكم أيها الناس اني أشهدكم على أمراء الامصار اني لم أبعثهم الاّ ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم فان أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ اهـ

هذه الخطبة من أجمع خطبه لانها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين الى غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه

٥

﴿ وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ﴾

يا أيها الناس اني قد وُلّيتُ عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استصلاحاً لما يصوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم واكفى عمر مهمّاً محرماً موافقة الحساب بأحد حقوقكم كيف آخذها ووضعها أن أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإنّ عمر أصبح لا يثق بقوّة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عزّ وجلّ برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبري)

٦

﴿ وخطب فقال ﴾

انّ الله عز وجل قد ولاّني أمركم وقد علمت أنفع ما يحضرنكم لكم واني أسئل الله أن يعيني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ولن يعتذر لدى وليتُ من حلاوتكم من حلوتي شيئاً ان شاء الله بما العصمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحد منكم أن عمر نهانا عن عقل لحق من نصي وأهدم وأبين لكم أمري فأيما

رجل كانت له حاجة أو ظُلِمَ مَظْلَمَةً أو عتب عليا في خلق فَلْيَؤْذِنّي «١» فانما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانيتكم وحرماتكم واعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم ولا يحملن بغضكم على أن تحاكموا اليّ فانه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة «٢» وأنا حيث اليّ صلاحكم غير علي عتبتكم وأنتم أيأس عامتكم حضرٌ في بلاد الله وأهل بلاد لا ارتع فيه ولا ضرع الا ما حاء الله به اليه وان الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤل عن أمانتي وما أنا فيه ومطّلع على ما حصرتي بصري ان شاء الله لا أكله الى أحد ولا أستطيع ما نفذ منه الا بالاماء وأهل النصح منكم للعامة ولست أحمل أماني الى أحد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)

٧

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان بعض الطمع فقرٌ وان بعض اليأس غنى وانكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وأنتم مؤجّلون في دار غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤجدون بالوحي فمن أسرّ شيئاً أُجد بسريرته ومن أعلن شيئاً أُجد بعلانيته فأطهروا لنا أحسن أحلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه من أظهر لنا شيئاً ورعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً واعلموا ان بعض الشُّحّ شُعْبة من النفاق (فاتقوا خيراً لأنفسكم ومن يُوق شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون) أيها الناس أطيعوا أمراءكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القَسْطَلّيّ فانه ان لم يَشِف فانه يَصِفُ «٣» أيها الناس اني لوددتُ أن أنجو كفافاً لا لي ولا عليّ واني لأرجو إن عُمِّرتُ فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم ان شاء الله وأن لا يبقى أحد من المسلمين وان كان في بيته الا أتاه حقُّه ونصيبه من مال الله ولا يُعمل اليه نفسه ولم يسعَ «٤» اليه يوماً وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله والقليل في رفق خير من كثير في عُنف والقتل حتفٌ من الحتوف يصيب البَرّ والفاجر والشهيد

«١» أي فليعلمني وهو من آذنه بالشيء أعلمه «٢» الهوادة المحاباة صلح ولاختصاص بالميل «٣» القسطلي أنواع مشهورة وشف رق شكى ما تحته ويصف نعته من وصف أو من الواصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض «٤» ولا يعمل له نفسه أي لا يجد نفسه أي لا طلب ولم يسع أي لم يسع

من احتسب نفسه واهله او احداً منهم يعمل فليسد الى المعوز العظيم فليضرع له اليه فان وعده جديد الفوز وفيرته (تاريخ الطبري)

٨

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال ان الله سبحانه ومحمده قد استوجب عليكم الشكر واوجد عليكم الحج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه خلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً ان يجعلكم لا هون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ (١) عَلَيْكُمْ نعمه ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَحَمَلَكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم احتص بها أهل ديكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم ورمادكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت الى امرئ خاصة الا لوقسم ماوصل اليه منها بين الناس كلهم اتعبهم شكرها وقدحهم (٢) حقها الا بعون الله مع الايمان بالله ورسوله فانهم مستحلقون في الارض قاهرون لاهلها قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم الا أمتان أمة مستعبدة للاسلام وأهله يحرون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم (٣) عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تتخطر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل (٤) يلجئون اليه ولا مهرب يثقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل وبرات سباحتهم مع رفاهة العيش (٥) واستفاضة المال وتتابع الغوث وسد الثغور نادين الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الامة على أحسن منها مذ كان الاسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى ان بلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطاع أداء حقها الا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا اله الا هو الذي ألهمنا هذا ان يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة الى مرضاته واذكروا

---

(١) أفاض (٢) اتعبهم «٣» قوله يحرون أي يعطون الجزية وكدائحهم أي سعيهم أو مكاسبهم ورشح الجباه عرقها (٤) حصن وملجأ (٥) رفاهة العيش سعته وخصبه

عباد الله غلا الله عنكم واتبعوا سنة الله عليكم وفي محالسكم مني وفادي قال الله عز وجل قال لموسى (أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وقال لمحمد صلعم (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض) فلو كنتم انكم مستضعفين عرومن خير الدنيا على حيلة من الحق تؤمنون بها وتسترجعون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وابينه بالله جهالة فلو كان هذا الذي استبلاكم (١) به لم يكن منه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والمنقلب وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء ان تشحوا على نصيبكم منه وان تطهروه على غيره قبله اما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذكركم الله الحائل بين قلوبكم الاماعزقتم حق الله فعملتم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها ووجلا منها ومن تحويلها فانه لاشيء اسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر امن للغير ونماء للنعمة واستجلاب للزيادة : هدا الله علي من أمركم ونهيكم واحث (تاريخ الطبري)

٩

﴿ وخطب لما شيع جيش سعد بن أبي وقاص ﴾

ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به وان للعدل أمارات وتباشير فأما الامارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحا فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال . والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أي عنده) وتأدية الحق الى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً واكتف بما يكفيه من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وان الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من سلطانها فأحدله الحق غير متعتع (٢) (تاريخ الطبري)

---

(١) استبلاه دعاه ليحميه من ضيق أو هلاك (٢) في القاموس تعتعه أي سله وحركه بعنف أو أكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضي الله عنه أن يبين لهم ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال .

قد بلغني ان فلانا منكم يقول لو مات عمر بايعت فلانا فلا يغترّن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتةً الا وانها كانت كذلك الاّ ان الله وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل أبي بكر وانه كان من خبرنا حين توفي رسول الله صلى عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة وتخالفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابي بكر فقلت ياأبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكر لنا الذي صنع القوم فقالا اين تريدون يامعشر المهاجرين قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لاتقربوهم واقضوا امركم يامعشر المهاجرين فقلت والله لنأتينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذا هم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو اهله وقال (أما بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة (١) منكم يريدون ان تحزلونا من اصلنا وتحضنونا من الامر فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زوّرت مقالة اعجبتني أردت ان اقولها بين يدي أبي بكر وقد كنت اداري منه بعض الحد وهو كان احلم مني وأوقر فقال ابو بكر على رِسلك فكرهت أن أعصبه وكان أعلم مني والله ماترك من كلمة أعجبتني في تزوري الاقالها في بداهته وافصل حتى سكتُّ فقال

اما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحيّ من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم احد هذين الرجلين فبايعوا ايهما شئتم . فأخذ بيدي وبيد أبي عبيده بن الجراح فلم أكره مما قال غيرها وكان والله ان أقدّم فتضرب عنقي لايقربني ذلك من ثم احب الى من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

(١) الدافة الجيش يدفون نحو العدو والاحتزال الاقتطاع وتحضنونا تكمونا

فقال قائل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير يامعشر قريش وكثراللغط وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت ابسط يدك ياأبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الانصار أما والله ماوجدنا فيما حضرنا امراً هو اوفق من مبايعة ابي بكر . خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على مالارضى واما ان نخالفهم فيكون فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لابد منه وما الطمع فيما لايرجى وما الحيلة فيما سيزول وانما الشيء من اصله وقد نبتت قبلنا اصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد اصله انما الناس في هذه الدنيا اغراض تنتضل (١) المنايا فيهم ونهب المصائب مع كل جرعة شرق وفي كل اكلة غصص لاينالون نعمة الا بفراق اخرى ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً الا بهدم آخر من اجله وناهم اعوان الحتوف على انفسكم فأين المهرب مما هو كائن وانما يقلب الهارب في قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً واكثر حسنة الحاسب جعلنا الله وإياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى عليّ حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله وما عنده ألا وقد خيل الى ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ما عند الناس الا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه باعمالكم فاناّ كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحى وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانما نعرفكم بما أقول لكم الا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيرا وائتمنا به عليه ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مريء وان

« ١ » في أساس البلاغة وحرحوا ان النضال وهم يناضلون ويتضلون ومعناه يترامون ويسارون « ٢ » قوله أقدعوا أي كفوا وقوله نفس طلعة كثير التطلع الى الشيء

الباطل خفيف ومجيء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة ورعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا (مفتاح الافكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا أمل محترم (١) وأجل منتقص وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرءا فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه نفس الخائر العي يأحدك بمالا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعدرك اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الافكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند أوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ألا اني قد وليتُ عليكم وقضيت الذي عليّ في الذي ولاني الله من أمركم ان شاء الله بسطا بينكم فيئكم وعطاءكم ومعاريضكم وأمنعا مالديكم محمدا لكم الحدود وهيئا لكم الفروج وتوآما كم ووسّعا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمّيا لكم أطماعكم وأمرنا لكم باعطياتكم وأرزاقكم ومعاونكم من عَلِمَ عِلْمَ شيء يبغي العمل به فلعّناه نعْمَلْ به ان شاء الله ولا قوة الا بالله (تاريخ الطبري)

باب

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبه شكا اليه ارتفاع الخراج الذى ضربه عليه مولاه المغيرة وطلب اليه

(١) محترم اي منقص وقوله منقص من الانتقاص وهو التراجع والانسكاك

تخفيفه فمن قائل انه وعده خيراً وعزم أن يلقى المغيرة فى تخفيف الخراج عنه ومن قائل انه سأله كم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما رأى خراجك بكثير على ماتصنع من الاعمال فتوعده الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال ياأمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام: قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك قال وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال ياأمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان وهكذا مازال يحيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبري في تاريخه رواه عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة

وروى فى أسد الغابة عن أبى رافع ان أبا لؤلؤة لما طلب الى عمر ما طلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك ومن نية عمر ان يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأصمر على قتله فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لا تضرب به أحداً الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجاءه (طعنه) أبو لؤلؤة فى كتفه وجاءه في خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) وهلك منهم سبعة

وفى رواية ان أحد المسلمين ألقى على أبى لؤلؤة برنسا ليتمكن من القبض

عليه فلما أحس انه أحدث بخنجر ذي طرفين وفي رواية الطبري وغيره ان عمر لما سقط قال أفي الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس . فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وغمر طريح ثم احتمل فأدخل داره وقد علا على وعثمان والزبير وسعد وأمرهم ان يشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انظروا أخاكم طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أمركم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شئ قوموا فتشاوروا وليصل بالناس صهيب ثم قال لابي طلحة الانصاري يا أبا طلحة ان الله أعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وأبى الاثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا بعبد الله وكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) قد أبأنك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ويقول لهم أعن ملإ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ... ولا شك ان القول ما قال لي كعب

وما بي حذار الموت اني لميت ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيد الله بن عمر قتل بأيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة بالانصار نيفا من اهل المدينة وان سعد بن ابي وقاص ليلتئذ الثالث الكتابة وقتل الهرمزان وان سببا قاله للاخرين ان عبد الرحمن بن ابي بكر قال غداة قتل عمر رأيت غلامين من الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأوني قاموا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو الخنجر الذي ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله وقال والله لا قتلن رجالا ممن شرك في دم اي يعرض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيبا فبعث اليه عمرو بن العاص فما زال به حتى اخذ منه السيف ثم ناوره سعد بن ابي وقاص واخذه وحبسه في داره

هذه الروايات التي جاءت في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن اعان فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل اسره المرة بعد المرة وكيف احتال للاخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه في اخبار نهاوند من ان ابا لؤلؤة فارسي الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم المسلمون ولما قدم سبي نهاوند الى المدينة حمل ابو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيرا الا مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلي في صدور هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه ان قتل عمر لم يكن الا عن مؤامرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن ابي بكر وان السبب الظاهر الذي اختلقه ابو لؤلؤة تحته اسباب اهم واعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين وان ابا هريرة كان واقفا على امر هذه المؤامرة فاندر عمر بالقتل قبل ثلاثة ايام من قتله والا فقوله لعمر انه رأى حز قتله في التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتا وليس عليه دليل كما انه ليس لابي هريرة ان يعلم الغيب وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لابي هريرة يد في هذه المؤامرة الا

انه علمها واراد ان يعرّض بذكرها لعمر رضى الله عنه بالكناية تحذيرا له ولم يشأ ان يصرح له بذلك لامر لا نعلمه الا ان عمر رضى الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ولم يشدّد عليه فى السؤال وربما لم يخطر له ذلك الامر فى بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربهم وعجميهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمنا عائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصا عمر بن الخطاب الذى يحكى انه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائما على الارض متوسدا الحصا فقال لله انت عدلت فأمنت فنمت. ولكن قُدّر على المسلمين ان يغفلوا عن مضرة وجود امثال اولئك الدخلاء فى المدينة فى مثل عصر عمر الذى كانت فيه جيوشه تضرب في انحاء الارض وتمثل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيد بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعى الانتباه لمثل ابى لؤلؤة والهرمزان وجفينة وامثالهم من الدخلاء ولا ينبغى ان يحسن بهم الطن الامع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف في نفوسهم اسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين. يألفون حكم الاسلام ويونسون باخلاصهم فى الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الاعاجم فى المدينة فلا ندرى لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج فى المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لا تحلبوا علينا من العلوج احدا اجرت عليه المواسى فلما طعنه غلام المغيرة قال الم اقل لكم لا تحلبوا علينا من العلوج احدا فعلتمونى فربما كان على علم وبينة مما يظنون الا انه لم يطن انهم يجرأون عليه مادام قائما فيهم وفي كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة قال الصنيع قال نعم قال قاتله الله لقد امرت به معروفا

فالحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ وأما هو رضي الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ما هو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان اول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعدها فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فعمل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتعجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفي المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا طبيب ينظر في جرحه فجاءه بطبيب من الانصار من بني معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطبيب يا أمير المؤمنين اعهد فقال عمر صدقني أحوبني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبك فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه

وفيه عن حمير بن محمد قال لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله ولو ددنا ان زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم يكن علي اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنعيماً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب ان أحيي عيسى ونحو منكم وما كنت من أمركم لا كالمريد يرى خيلاً غير جوها ويخشى ديموم دونها

فهو يركض بيديه ورجليه. وأشدّ من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها، وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائي درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما: ثم بكى وبكى الناس معه. فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك قال (أي عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت: قال ان تركتكم فقد تركم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له فلو ابنك عهدت الى عبد الله فانه له أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه قال بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت اني نجوت من هذا الامر كفافاً لا لي ولا علي ثم راحوا فقالوا يا امير المؤمنين لو عهدت فقال قد كنت أجمعت بعد مقالي لكم ان أولي رجلا أمركم ارجو ان يحملكم على الحق واشار الى علي بن ابي طالب ثم رأيت ان لا اتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم هؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم انهم من اهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن السنة وليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم والياً فأحسنوا موازرته (اي معاونته) في حديث طويل سيأتي معناه وبعضه في قصة الشورى ان شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل ان يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤلية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضى الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين

أخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا قال ان وفى له مال آل عمر فأدّوه من أموالهم والا فسل في بني عدي فان لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأد عني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أي عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء : قال عمر ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذي تحب قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم الي من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فأدخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين

روي انه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلي وويل أمي ان لم يرحمني ربي ثم مات ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك علي وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا اله الا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب

قال في أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سمدانه قال طعن عمر يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر واحد وعشرين يوما قال وقال عثمان بن محمد الاخنسي هذا وهم توفي عمر لاربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل اقل والاول أصح الاقوال في عمره

(وصيته لمن يخلفه)

أخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال : دفع الي عمر كتاباً فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فاذا فيه

أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الاولين الذين أخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً (الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) الى قوله تعالى : المفلحون . ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا في الامر . واوصيه بذمة [1] الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم (اي يحميهم) اه

---

[1] وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضي بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له ماله وعليه ماعليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم بقية طاهرة بعد أن فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل ونشر روح الجد والنشاط في العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وقل لهم جيوش فارس والروم وربام على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمرهم الاسلام وقرره شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم في طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ولم يكن لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذي بذره في المسلمين أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التي تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

لما توفي عمر أكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسر أيعمل بكلتا يديه وكان أصلع طويلا قد فرع [1] الناس كأنه على دابة وقال الواقدي كان عمر أبيض أمهق [2] تعلوه حمرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه أكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يحصب الناس . وقال بعضهم انه كان أسمر شديد السمرة وهو الاكثر عند أهل العلم

(١) علاهم (٢) الابيض لاحمرة فيه

باب

(ولده وعماله)

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبدالله وحفصة أمهما زينب بنت مظعون وعبيدالله (وهو الذى قتل الهرمزان وجفينة) وأمه مليكة بنت جرول الخزاعية وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب . ومجير واسمه عبدالرحمن . وأبو شحمة (وهو الذى حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبدالرحمن وبنات أخر

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبدالله وعبيدالله وعاصم ومجير وعقب مجير هذا بادوا ولم يبق منهم أحد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أى السنة التي توفي بها على مكة نافع بن عبدالحارث الخزاعى . وعلى الطائف سفيان بن عبدالله الثقفى وعلى الكوفة المغيرة ابن شعبة وعلى البصرة أبو موسى الاشعرى . وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن أبى سفيان . وعلى حمص عُمَيْر بن سعد وعلى البحرين وماحولها عثمان بن أبى العاص الثقفي وعماله فى الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له مُعَيْقِيب أيضاً وعلى بيت ماله عبدالله بن أرقم وحاجبه يرفأ مولاه

باب

(الحاله الاجتماعية على عهده)

كانت الحاله الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضي الله عنهما اذ

توطد على عهد الثاني للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة والانغماس في الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بأنها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث في أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الامة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومي على أطراف الممالك المحاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأرعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلي عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وأنقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر طلها وهي تتقدم في داخل بلادها وتتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت في تلك الممالك حزور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التي كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ويدافعون عنها يد الامبراطرة والملوك وخنع الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتي في الحياة فجاءهم العرب وقد امترح في دمائهم حب الحرية حتى مايطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فمشى في روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم في أيدي العالمين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بأنهم شر لا يحطون في الحقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لنا أهين رجل مصري من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ولم يعد الا بعد ان استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده في غير هذا المحل وما نعلم ان قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوما مبلغها في ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل وهو حال ما أهنأه لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية الى ذرى العز والحرية وبشرهم بمصر جديد وسعادة ما عليها مزيد

خالط العرب هذه الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا الزوم الحياة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم في العادات وبدأوا يسارونهم في مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم في الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقاتلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما هو موجود في الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا اححاف في حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى في أنحاء المملكة وانهال العفو والثروة على الفاتحين وخطوا خطى حثيثة الى ميدان الراحة والنعيم مع الاخذ على الشكائم والتحوش في المأكل والملبس والتوسط في العيش والقصد في الانفاق والامساك عن البذل خوف الاحد على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيت في باب سياسته مع العمال

هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بعد اذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم الى ميدان الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها وبما يحمل من غرب الدول المجاورة ويأمن عائلة الامم المغلوبة وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً وهي اشغال العرب في الحرب ورجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الاشعري في الكتاب عدد ٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب في حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم عنهم للفتح وتفرقهم في انحاء الممالك وتعجلهم في ذلك الظهور قبل تأصل الدين في عامتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها في الاسلام وانما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية مصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الاعاجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره في هذا المقام . ومنه سرعة تقهقر الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية الى غير ذلك من الامور التي ربما يمر معنا ذكرها في هذا الكتاب ومع هذا فادا نظرنا من جهة أخرى الى سياسة عمر في تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة في حينها وذلك لان دفعه للقوم الى الفتح في أول الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدويخ الممالك لاسيما وانه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الامم ويغل أيديهم عن التطاول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الدمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الاقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً من سياستهم مع حداثة عهدهم في الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهراني الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يُغْرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخطبهم الحضارة الا خطىً قليلة الى الامام فكانوا وسطا في المعيشة في كل الامور ذلك لان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي ويحملهم على التوسط في العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته في التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الاشعري الذي يقول له فيه بلغني انه فشت لك ولاهلك هيئة في المطعم والملبس وينصحه بالتزام القصد وتأييه لسعد بن أبي وقاص على أن سمى داره في البصرة قصر سعد وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذوناً الخ ما جاء في باب سياسته مع العمال وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم عن التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق الوسط وحسبك دليلاً على هذا كتابه الى أبي عبيدة بن الجراح الذي يلومه فيه

على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها

وأما انه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي فيدل عليه ما رواه عامة أهل السير أن الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله فاحتبسه عنده حولا وأشهرا ثم سرحه وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك . وانما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقي التدريجي حتى في المدارك على ان مخالطتهم الامم وسكنى الامصار غيّر ولا شك من أخلاقهم وألان من طباعهم وزاد في معارفهم ولا يعقل ان قوما كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الامم الا باستعداد عظيم في قوى المدارك كمن في نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بها أهل الامصار في ذلك العصر وفي كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقا وأسد عملا على سذاجة فطرتهم وجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لا يتكرر على مثل عصر عمر رضي الله عنه الذي دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب في أسباب الظهور وعلى الامم يدلك على هذا ما رواه الطبري في أخبار القادسية ان رستم رعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علّمَ هؤلاء حتى علموا وفيه دليل على ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً لبعدهم عن أسباب الحضارة واعراقهم في الجهالة ولما اجتمعوا على كلمة الاسلام واستحكموا على مملكتي فارس والروم وظهروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتي الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب وبعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلاخلاص الراعي لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم في تسودهم على الامم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك في مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي انتهى اليها المسلمون فيما بعد سيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق المتلدذ بجنى ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الا من السفاسف والاوهام وكل اشتغال الا بالاباطيل وكل سعي الا وراء الرتب والالقاب التي أضحكت علينا الأمم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فيا لي هوة العدم والغربيون يشمون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً الا في تهاتر ولا يحسون مساحركة الا الى تدابر قد امترح الاستعباد في نفوسنا حتى ما يطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسعي الى المجد وهي حالة يا لله تمزق عشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواعوثاه وواعمراه

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته في استقصاء أخبار رجل الأمة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه واني لأرجو بما بذلته من الجهد وما عانيته من النصب وتعب الفكر في تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار واستنتاج النتائج واداء النصيحة أن يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل ماخطه قلمي على محمل الاخلاص في خدمة الملة والحق والله يشهد اني لاعرض لي أرمي اليه سواه ولاأرغب في هذه الحياة الا فيه فان أصبت فيما كتبت فذلك ماأتمناه والا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردّ الي خطأي ونهى الى غلطي لأصلحه في الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي مارأيته من قومي في جميع الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي ودافعاً لي الى المضي في عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مهما عانيت من المشاق ولاقيت من التعب اذ كل شيء سهل لعدر صى قومي عن كتابي هذا . وقد بعث رضاؤهم في نفسي ارتياحاً عظيماً في تحقيق أمنيتي التي قصارا هاتنبيه العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين يمثلون صورة الحياة العالية في أجلى مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم منها خيال في النفوس الخامدة يزعجها عن مواطن الخمول والرذيلة ويهضها الى تناول المجد من ثمته الشامخة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب

هذا وقد كنت وعدت قرّاء الجزء الاول بأن أصدر هذا الجزء مشتملاً على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشتهر في دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الآن اني لما انتهيت من سيرة عمر رضي الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذي قدرناه له ولو أضيفت اليه سيره ورجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعها الوعاء

بشرط بيع الاجزاء بثمن هين ولخالف ذلك رغبتي في تعميم الكتاب لاسيما وان كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن الخطاب لهذا رأيت ان أصدر هذا الجزء حلواً من سيرة مشهوري الرجال في خلافة عمر رضي الله عنه وان أرجئها الى الجزء الذي يليه فاسأل القراء المعذرة كما أسأل الله التوفيق انه أكرم مسؤول

﴿ كلمة للجرائد ﴾

(وشكر للمنتقدين)

التمست في الجزء الماضي من أهل الفضل وأرباب الجرائد الانتقاد على ما في ذلك الجزء من خطأ ربما بدر به القلم لاصلحه في هذا الجزء فسبق بهذا التفضل من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة المعارف والعلم منذ أنشئتا الى هذا العهد فطلبت اليّ الأولى ان أوسع النظر في تواريخ الغربيين واستقصي منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامي لاتوسع في بيان العلل والاسباب التي أوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفي الحقيقة فان هذا الامر من الامور الخطيرة بتدقيق المؤرخين الخليقة بالنظر والتأمل لهذا راجعت أشهر التواريخ الافرنجية التي كتبت عن العرب والروم في ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقية لادورد جبون الانكليزي وتاريخ العرب للمؤرخ الفرنساوي ديفرجي والذي رأيته فيهما وفي غيرهما من التواريخ مالا تخلو منه كل دولة في مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم وحب الشهوات وسذاجة القانون وتحادب أطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في الدولة البزنطية تفاقم خطب المجادلات الدينية التي أودت بحياة القوم السياسية الا أن الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة في حال

ضعفها ذلك لانه من أعاظم الملوك البزنطيين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما ترى ذلك من وقائعه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم ومهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغن عنه ذلك الكفاح شيئاً في جانب قوة المسلمين وكفاءة قوادهم العظام على ان الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين في عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفي المؤرخ أن يستخرج العلل والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت في هذا الجزء جهد المستطاع في تتبع العلل السياسية والاجتماعية التي دعت لسرعة ظفر المسلمين بدولتي الفرس والروم يومئذ ولم أدع خبراً من الاخبار الا أردفته بما خطر لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخية لأمثل ذلك العصر في صورة يراها القارئ كأنما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الراشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا ففوق كل ذي علم عليم وللمقتطف في تنبيهي الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاماً آخر من كتابي وسألني بياناً عمن هو المسؤول عن بعض الحوادث التاريخية التي جرت في بعض أنحاء القطر السوري في منتصف القرن الماضي والجواب عن هذا لا علاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الاخيرة من هذا الكتاب وسيأتي في محله ان شاء الله

وأما مجلة الهلال الغراء فقد انتقدت عليّ قولي في الجزء الماضي أن دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامي حاصرة بني غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلاً مخصوصاً في هذا الجزء فيه البيان الكافي فلا حاجة هنا لغير اسدائها شكري ومشاركتها في أجري لانها كانت السبب في استقصائي للادلة

التاريخية التي اذا لم تفد في بابها اليقين فانها تكون عوناً للباحثين

وحبذا لو حذت حذو هاتين المجلتين كل المجلات العربية في انتقاد الكتاب وتتبع ما فيه من الخطأ أذن والله لرادتي انبعاثا للتحقيق الاخبار وبسط الافكار ونهتي الى ما ربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخية في بال اذ العلم اجزاء لا يتناولها عقل الفرد والأمة جسم لا يحرك عضو منه الا بالاستعانة باخيه فما بال مجلاتنا التي هي عون المعارف وسد الباحثين ومنار المسترشدين لا يفيض من كنوزها على المؤلفين الا قول أحسن وأجاد ألعلها تجهل ان مدرسة الامة العامة هي الكتب والمؤلفات وان الجرائد هي المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتعهدها بالنظر والبحث فيما يفسد اخلاق الناس او يصلحها من خير او شر وحق او باطل

او لعلها تجهل ان معظم البلاء الذي حل بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة انما كان منشأوه الكتب التي شحنت بالاباطيل وانتزعت من النفوس ملكات العلم الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل في نظر اكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعاً للاهواء ان شاءت جعلته باطلاً وضربت به وجوه العلماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الأمة لم تستثن من ذلك البلاء لانها لا تحفظ على صفحاتها للمؤلفين غير المدح والاطراء ولا تنبه المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من سر باطل

هذا وما خلا المجلات فقد انتقد عليّ بعض الادباء إهمالي تفسير الالفاظ اللغوية التي وردت في كلام القوم في الجزء الماضي على اني لم أهملها الا اقتصاداً للوقت كما بينت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ في هذا الجزء ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول مفهوماً بقرينة المحاورة

فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

وقد نبهني بعضهم أيضاً الى غلطات مطبعية غير ما صححته في آخر ذلك الجزء فعزمت ان أضيفها الى فهرس الخطأ والصواب الذي يلحق بهذا الجزء

وانتقد علي بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضي بحجة ان التاريخ ينبغي ان يكون خلواً من ذلك الحشو اذ يقرأه المسلم وغير المسلم ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلح عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وان لهؤلاء من الفضيلة الذاتية ما يغنيهم عن مثل هذا التعظيم وان أكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم يستعمل الدعاء في تاريخه الا لكبار الصحابة واستعمله بالترحم لا بالترضي وفيه دليل على أن وجوب التعظيم انما هو في القلب لا في اللسان والمؤرخ في الخيار باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أر بأساً من ايراد ذلك الدعاء اقتداء بالائمة المحدثين الا اني رمزت اليه بحرف (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن شاء فلا ولا يخفى على فطنة المنتقد ان ذلك العصر عصر ديني أكثر مما هو سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الاسلام وصير كل انسان يستشعر بشيء من وجوب التعظيم ان لم يكن باللسان ففي القلب عند ذكر كل رجل عظيم من أي قبيل أو ملة كان وكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وأئمته الكرام الذين رفعوا منار الاسلام وأسسوا دولة الملك العريض وأعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

نقلت عن منتخب كنز العمال كثيراً من الاحاديث فى هذا الكتاب ولم أذكر أسماء المخرجين اكتفاء بالعزو الى كنز العمال ليراجعه من أحب معرفة المخرج الذى ذكر فى الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت عن السيرة العمرية لابن الجوزي التى جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى باسم الصحابي فقط كثيراً من الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضى الله عنه وعزوتها الى السيرة ومن أحب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الاصل ويوجد منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية بمصر

فهرست

الجزء الثانى من اشهر مشاهير الاسلام

صحيفة	
١٥٨	عمر بن الخطاب (باب) حاله في الجاهلية نسبه وأصله وشرفه وصفته
١٨٦	مكانته عند قومه وسيرته فيهم
١٨٧	(باب) اسلامه وصحبته
١٩١	صحبته
١٩٦	(باب) خلافته
١٩٩	(باب) أول أعماله في الخلافة
٢٠٠	اجلاء أهل نجران
٢٠٤	حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم الأوربيين في المسلمين
٢١٦	(باب) فتوح الشام
٢١٧	فتح دمشق بحث في الردة
٢٢٦	بطلان حبر
٢٢٩	بحث فى هل كانت دمشق قاعدة الغساسنة
٢٣٥	وقعة فحل
٢٣٦	بيسان وطبرية
٢٣٧	مروج الروم
٢٣٨	ذكر بعلبك وحمص وسواحل دمشق
٢٣٩	تحقيق خبر احاديث واليرموك

صحيفة	
	واختلاف المؤرخين فيهما
٢٤٥	فلسطين واجنادين
٢٤٩	فتح بيت المقدس
٢٥٣	لاوثنية فى الاسلام
٢٥٨	فتح حماة واللاذقية وقنسرين
٢٥٩	ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية
٢٦١	فتح حلب وانطاكية وغيرها
٢٦٣	مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين
٢٦٧	ما كل حديث تحدث به العامة وبدم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس
٢٧١	القواد الذين حضروا فتوح الشام
٢٧٢	خلاصة جغرافية ونظرة اجمالية
٢٨٥	باب فتح العراق وفارس اسداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها
٢٨٧	موقعه
٢٨٨	عود الى خبر أبي عبيد موقعة أخرى
٢٩٠	عود الى خبر أبي عبيد
٢٩٥	شجاعة النساء المسلمات
٢٩٧	عود الى خبر المثنى كلمة على دولة الفرس قبل الفتح

صحيفه	
٢٩٩	استعداد مثنى ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق
٣٠١	الحكم الباباني في الاسلام
٣٠٥	عود الى خبر الشورى
٣٠٦	وصية عمر لسعد
٣٠٧	مسير سعد
٣١٠	كلمة فى التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين
٣١٢	خبر القادسية وعبرها
٣١٥	مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج
٣١٥	كيف يكون الاستعمار
٣٢١	عود الى خبر الفتح
	عروة فارس من البحرين
٣٢٣	خبر الهرمزان
	فتح الاهواز وتستر والسوس وعبرها
٣٣١	خبر حدي ساور
	وأمان عبد أمصاه جيش المسلمين
٣٣٢	الانسياح فى بلاد فارس
٣٣٤	خبر نهاوند
٣٤٤	(باب) فتح الجزيرة
٣٤٦	(باب) فتح مصر والرقة
٣٤٨	(باب) تعبية الجيوش وراعة القواد وديوان الجيش
٣٥٨	باب علائق عمر مع المولد
٣٦٠	باب أهم الاحداث فى عصره
٣٦٣	باب آثاره فى الخلافة

صحيفه	
٣٦٣	كتابة التاريخ الهجرى
	تدوين الدواوين وفرض العطاء
٣٧٢	ترتيب العمال وتقسيم الولايات
٣٧٤	ضرب النقود
٣٧٦	وضع البريد
٣٧٧	تمصير البصرة والكوفة
	التوسعة في المسجدين
٣٧٨	حملة مآثر
٣٧٩	باب أخلاقه ومناقبه وسياسته وعدله
٣٨٩	نظرة فى بعض الاخبار المتعلقة بأهل الذمة
٣٩٢	أخباره مع عماله ووصاياه لهم
٤٠٣	كلمة في الحرية والطاعة أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية
٤٠٩	حضه الناس على الكسب
٤١١	نهيه عن السطح وتحذيره من الابتداع
٤١٤	أدبه وتأديبه
	أدبه مع رسول الله
٤١٥	أدبه مع نفسه
	تأديبه لنفسه
٤١٧	تأديبه للمسلمين
٤١٩	أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم
٤٢٢	اهتمامه بأمور الرعية
	وعسسه بالليل
٤٢٦	ورعه وزهده
٤٢٩	كلمة في بيت المال
٤٣٣	خاتمة

صحيفة		صحيفة	
٤٣٥	قصاؤه	٤٧١	(باب)مقتل عمر
٤٣٧	كتابه الى شريح القاضي وكتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري	٤٧٩	وصيته لمن يخلفه
٤٣٩	فراسته ودكاؤه	٤٨٠	صفته
٤٤٢	سد من قول أقواله وأحاره	٤٨١	(باب)ولده وعماله
٤٤٥	قول شق من أحاره		(باب) الحالة الاجتماعية على عهده
٤٥١	أولياته	٤٨٨	اعتدار
٤٥٣	(باب) كتبه وفيه ثلاثة عشر كتابا	٤٨٩	كلمة للحرائد وشكر للمستقدين
٤٦٢	(باب)خطبه وفيه أربع عشرة خطبة	٤٩٣	تنبيه

﴿ تمت الفهرست ﴾

﴿ اصلاح الغلط الواقع في الجزء الاول والجزء الثاني ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨	١٧	وتحملهم علىّ	وتحملهم على
٢٠	٩	واحار	واحار
٢٥	٧	مسايح	مسالح
٢٨	١٦	عقلا	عقالا
٤٧	١٤	للحقية	للحقيقة
٥٦	١٠	العالمن	العاملين
٦١	٤	سطام	سطام
٠٠	١٣	طائقه	طائفة
٧٤	١٠	فجمعهم اليه	فجمعهم اليه
٧٦	١	قاتلت مع الي	قاتلت الي
٨٣	٦	رأسى	رأس
٠٠	١٦	السالمة	المسالمة
١٠١	١٣	اشتعلوا	اشتعلوا
١٠٤	عدد الصحيفة	١٤٠	١٤١
١٠٤	٤	عصرة	عصره
١٠٥	٧	ليبرء	ليبرأ
١٠٦	٤	طرء على المسلمين ماطرء	طرأ على المسلمين ماطرأ
١٠٧	١٩	للفوصى	الفوصى
١١٢	٨	لااله اب هو	لااله الاهو
١١٩	١٦	بحيركم	بحيركم
١٢٠	٤	وأمعن فيما	وأمعن النظر فيما
	١٤	الشور	الشورى
١٢٦	٦	بتقوى والاعتصام	بتقوى الله والاعتصام

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢٧	٣	شر بعد الحنة	شر بعده الحنة
١٣٠	٦	واتباعه أمره	واتباع أمره
١٣٢	١١	دحلت عليله	دخلت عليه
٠٠	١٩	ولم ينمى	ولم يبن
١٣٨	٨	صدقت	صدقت
١٤٠	٨	مع المسلمين	مع المشركين
١٤٣	١	فى المدينة	فى المدينة
١٥١	١٨	وحلسه	وأحاسه
١٥٣	١٥	على الباطل	على الباطل
١٥٤	٢٠	حاءته الحيل	حاءته الحيل
١٥٥	١	مناياً	مسانياً
٠٠	١٦	الى أبي بكرد	الى أبي بكر
١٦٨	١٣	في اليرمون	في اليرموك
١٧١	١٦	بعرله	الى عرله
١٧٩	١٩	المعاهد	والمعاهد
١٨٥	١٦	انشعالاعنها	اشتغالاعنها
١٦٦	١١	بصحيان	بصحفان
١٩٠	١٢	على لحق	على الحق
١٩٤	٧	المشكات	المشكاة
٠٠	٨	ساناً	بياناً
٠٠	١٧	والحشمانية	والحسمانية
١٩٦	٦	عن بيعه	عن بيعته
٠	١٤	الكفائة	الكفاءة
١٩٩	١٥	يقعلان فى العقول	يفعلان فى العقول
٢٠١	٣	وشترط عليهم	واسترط عاهم
٠	١١	يتديون	يديون
٢٠٥	١٦	لحياهم	لحياتهم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٠٠	٢٠	أو ترعها	أو اترعها
٢٠٨	٥	عير المسالمة	عير المسلمة
٢١٠	٢٢	أسعر لهيها	أسعر لهيبها
٢١١	١	قوة لعلب	قوة العلب
٢١٢	٦	إدنّ	إدن
٢١٥	١١	لدي يطهر	الدى يطهر
٠٠	١٣	لاسلا	الاسلام
٢١٦	١٢	إن ترصى	أن ترصى
٢١٨	١٥	فطفرت الرو	فطفرت الروم
٠٠	١٦	الحدسة	الحديبية
٠٠	٢١	ابرور	ابرير
٢٢٤	٢	عمائة	عمالأة
٢٢٦	١٠	المملك	الملك
٢٢٩	٢٠	وليسوفى	وليسوافي
٢٣١	١٢	ولاسعد	ولايسعد
٢٣٣	٧	بالمسلاط	بالمقسلاط
٢٣٤	١٣	المتوفي سة	المتوفى سة
٢٣٥	٦	درحات المدسة	درحات المدية
٢٣٦	١٥	المسايين	المسلمين
٢٣٨	٤	هدا الهرر	هدا الهدر
٢٤٥	١٦	وأحو حرامي	وأحو حرام
٠٠	١٨	فأمر الفيقار حلاَ	فأمر الفيقار رحلاَ
٢٤٦	٧	عمر بن العاص	عمرو بن العاص
٠٠	١١	عم سفرح	عم تفرح
٢٥٩	٥	فسرين فتحص	فسرين سار الى حاصر حلب فتحص
٢٦٣	٣	وبلع أبو عبيدة	وبلع أبا عبيدة
٢٦٦	١٧	ولا برهدا	ولا برهدوا

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
...	٢٠	للدين	للدين
..	٢١	حاد	حاء
٣٢١	٨	سراقة	سراقة
٣٢٣	٩	أن نعميه	أن يعميه
٣٢٤	١	لا يُرّدعليهم	لا يردعليهم
...	١٥	لم يبق	لم يسق
٣٢٥	١١	واسقت له	واتسقت له
٣٣٨	٧	وهر السرادق	وهو السرادق
٣٣٩	٩	فاردكه	فأدركه
٣٤٤	٩	فتح الحرزة	فح الحريرة
٣٤٩	٦	نعصها	نعصها
...	١٨	رداء	ردءاً
٣٥٣	١٠	ن جهل	ن أبي جهل
٣٥٧	٦	لاف ثالثه	آلاف ثلثه
٣٥٨	٦	أيادى العرب	أيدي العرب
٣٦٤	٤	تشرح لك	نشرح لك
...	٢١	وقرأها ومواستهم	وقرائها ومواساتهم
...	٢٣	سعادة الحياة	سعادة الحياة
٣٦٥	١	فى المالك	في الممالك
٣٦٦	٥	فقدقعطها	وقد قطعها
...	٢٠	مارات	مارأة
٣٦٧	٤	نحو دلك	ونحو دلك
...	٥	والأمة . مثل	والأمة. لمثل
٣٧٢	١٤	حر من الحرزة	حرء من الحرزة
٣٧٩	٨	قلوهم لاسلام	قلوهم الاسلام
٣٨١	٤	لقي رحلا	لقي رحل
..	١٤	ن عساكر	ابن عساكر

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٣	٣	امهلتهم	أمهاتهم
٣٨٦	١٠	حديفة بن ليمان	حديفة بن اليمان
٣٨٩	١١	اطراح لأمه	اطراح لأمة
٠٠٠	١٥	ولاتخدم المال	ولاتخدم المال
٣٩١	٢	مارشارهم	مارشادهم
٣٩٢	٩	وهومن	وهو
٣٩٣	٢	اليعوث .. يهاود	البعوث ... يهاود
٠ ٠	١٧	بن حرير	ابن حرير
٣٩٥	١٨	وري الطبرى	وروى الطبري
	٨	فتصوها	فتقتوها
٣٩٩	٩	واقلوا من الرواية	وأقلوا من الرواية
	١١	بن الحوري	ابن الحوري
	١٥	المهدم	المتهدم
٤٠٠	١١	الاشعب	الاشعث
٤٠١	١٥	فحمت	فحمت
٤٠٢	١٥	الآ نّ	الآانّ
٠٠٠	١٦	فرق	فرقاً
٤٠٤	١١	يهبا حق	يها حق
٤٠٥	٥	أطعو الله	أطيعوا الله
٠	٢١	تستدد	تستند
٤٠٦	١٧	فاعاده	فاعاد
٤٠٧	١٧	بن عم خالد	ابن عم خالد
٠٠	٢٠	بن العم	ابن العم
٤٠٨	١٢	لاحكم الا الله	لاحكم الا لله
٤٠٩	٩	مرتيه	مرسة
٤١٩	١١	لمساواة	المساواة
٤٣١	٩	يتصنى الحليل	يتصنى الحلل

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤٤٩	٩	عمر يقول	عمر يقول
٤٥٦	٢٣	ولامن صليهم	ولامن صلبهم
٤٥٧	٢٦	«٢» هكد	«٣» هكذا
٤٥٨	٢٤	يبغض الله	بغض الله
٤٦٢	٣	فقد ارر	فقد ارر
٤٦٦	٨	احمل	احمل
٤٧٠	٢٥	يتساناصلون	يتناصلون
٠٠٠	٢٦	نفس طاعة	نفس طلعة
٤٧٥	٤	وعربهم	وعربهم
٤٧٨	١٠	عمران	عمرن
٤٨٢	١٣	جرور	حدور
٤٩١	٩	والحث	والبحث

وردت امطة الاردن في هدا الكتاب بتشديد الراء تارة وتشديد اخرى والصواب تشديد الاون فليتنه

قد وقع في هذا الجزء اغلاط أخرى غير الاغلاط المبينة في فهرست الخطأ والصواب لم اطلع عليها الا بعد تمام طبع الكتاب لاني لم أقم على طبع قسم كبير منه لانحراف ألم بصحتي واضطرني الى السفر ومنها انه جاء في صحيفة ٣٥٣ سطر ١٤ اسم أشيم وصوابه بن أشيم وفي الصحيفة ٣٦٧ سطر ٤ نحو وصوابه ونحو وفي الصحيفة نفسها سطر ٥ مثل والصواب لمثل وفي الصحيفة ٤٢٩ سطر ١٦ وتقتضي والصواب وتقضي وفي الصحيفة نفسها سطر ١٧ بقبول وصوابها بفصول وفي الصحيفة ٤٣١ سطر ٣ منه والصواب منها وفي الصحيفة ٤٣٦ سطر فقصد والصواب فقد وجاء في الصحيفة ٤٣٧ جملة طويلة بعد كتابه الى شرح القاضي أولها وأما أقصيته الخ الجملة وليس هذا محلها بل هي في ختام هذا الفصل بعد كتاب أبي موسى الاشعري وفي الصحيفة ٤٤٢ سطر ١٢ جملة لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة وصوابها يتوفق لجمع كلمة الامة وفي الصحيفة ٤٤٩ سطر ٩ أم والصواب بن أم في الصحيفة نفسها آخر سطر ١٨ عنوان فصل مخصوص لم يجعل وحده بين سطرين وسقط من الفهرس فاثبته اليه وفي صحيفة ٤٥٣ سطر ١ سلمه والصواب مسلمة وفي الصحيفة ٤٥٨ سطر ٢٤ يمص وصحت في الفهرس يمص وصوابها يمض بالعين وفي الصحيفة ٤٦٤ سطر ٦ للعوص والصواب للعرض وفي الصحيفة نفسها ٢٤ وهو الحق والسلطة وصوابه وهو الحق الذي تعين به حد السلطة العليا الخ وفي الصحيفة ٤٦٥ سطر ٤ ولا تحمدوهم والصواب ولا تحمروهم وفي الصحيفة نفسها سطر ٢٣ لدي والصواب الذي وفي الصحيفة ٤٦٧ سطر ١٥ مستعيدة والصواب مستعدة وفي الصحيفة ٤٧٠ سطر ٢٥ وحرحوا او والصواب وحرحوا الى وفي الصحيفة ٤٧٢ سطر ٣ رأى والصواب أرى وفي الصحيفة نفسها سطر ١٨ وجاءه والصواب ووجأه بهمزة فوق الالف وفي الصحيفة ٤٧٨ سطر ١٢ ولأورث والصواب ولأورثن والصحيفة ٤٨١ سطر ٦ الدير والصواب الدر والصحيفة ٤٨٤ في سطر ١٣ لعصبهم وهو زائد لامحل له وفي الصحيفة ٤٩١ سطر ١٧ سر والصواب سردواهم عاطف جاء في هذا الجزء في الصحيفة ٤٧٤ سطر ١٨ وما بعده وهو اسم ابي هريرة بدل كعب الاحبار وهو سهو يدركه القارئ مما قبله وانما جاء عليه تشتت الخاطر وألم المرض ولم يتنه من وقف على طبع الكتاب له ليصلحه لما اني لم أعد نظري عليه حال الطبع لتعبي جارح القطر فأرجو كل من وقعت بيده نسخة من هذا الكتاب ان يصلحه بقلمه بان يضع اسم كعب الاحبار بدل اسم ابي هريرة وله الفضل وقد جاء في الفهرست فصل بعنوان بحث في الردة وهو حشو من الطباع اذ ليس في هذا الجزء فصل بهذا العنوان وانما هو في الجزء الاول فانتبه اليه

وبقي بقيت نسخ هذين الجزءين فسعيد طبعهما بأحسن اتقان ان شاء الله